الدكتور أحمد حطيط

تاريخ لبنان الوسيط

دراسة في مرحلة الصراع المملوكي - الصليبي

دار البحار

سحب الكتاب وحوله لصيغة البى دى اف

الباحث النابة/ عماد أمير

وفقه الله

تاريخ لبنان الوسيط

تاريخ لبنان الوسيط

دراسة في مرحلة الصراع المملوكي - الصليبي

((٦٥٨ - ٦٩٠هـ / ١٢٦٠ - ١٢٩١م))

تأليف

الدكتور أحمد حطيط

منشورات

دار البحار

الطبعة الأولى
١٩٨٦

دار البحار

بيروت - ص.ب ١٥/٥١٢١

الإهداء

إلى روح والدي

مُقَدّمة

يفترض موضوع البحث أن ثمة صراعاً حضارياً مزمناً بين الشرق والغرب ، امتدت جذوره إلى أيام الإغريق ، وتواصل عبر مراحل التاريخ متقلباً بين مدّ وجزر ، حتى بلغ أوج درجات العنف في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي ، في إطار ما اتفق على تسميته بالحروب الصليبية ؛ ذلك أن الغزوات الفرنجية المتلاحقة التي شارك فيها ملوك وأمراء أوروبا تحت شعار استرجاع الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، متخذين من الصليب راية لهم ، إنما كانت تهدف إلى تحقيق أحلام هؤلاء في السيطرة على بلاد الشرق والتنعم بخيراته . وقد نجحت تلك الغزوات ، بالفعل ، في الوصول إلى مبتغاها ، وبسطت هيمنة الغرب الأوروبي على منطقة شاسعة من بلاد الشام ، مستغلة حالة التشتت والضياع التي كانت تعاني منها الديار المصرية والشامية على حدٍ سواء .

واستكان المشرقيون بعض الوقت ، وكان ذلك بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة التي سرعان ما هبّت في وجه المعتدي أيام الزنكيين ،

واستمرت في الحقبة الأيوبية ، وبخاصة خلال حكم صلاح الـدين ، ثم انتهت بردع الصليبيين وطردهم من بلاد الشام على يد المماليك .

ولما كانت دراستنا تتناول المرحلة الأخيرة من المواجهة مع الصليبيين ، والتي تصدى لها المماليك ، لذا سوف نحصر اهتمامنا في الحقبة الواقعة ما بين ٦٥٨ ـ ٦٩٠ / ١٢٦٠ ـ ١٢٩١ ، والتي تقصَّدنا تسميتها بمرحلة التحرير . فمن هم المماليك وبأي معنى أسندت إليهم مهمة التحرير ؟ .

المماليك ، لفظة تدل على الجمع ، مفردها مملوك ، ويقصد بها غالباً الرقيق الأبيض الذي كان يُؤتى بهم من جنوبي بحر قزوين وبلاد الترك ، ويعود ظهورهم في بلاد الشام والديار المصرية إلى دولة بني العباس في خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ / ٨٣٣ ـ ٨٤٣) ، حيث كان يُصار إلى شراء عبيد يخدمون في الجيش والبلاط ، بعد أن ضعفت الثقة بالعناصر العربية والفارسية التي قامت الدولة العباسية بمساعدتها ، ثم استفحل أمر هؤلاء المماليك ، بعد أن ازدادت الحاجة إليهم من قبل ولاة مصر من الطولونيين إلى الإخشيديين ثم الفاطميين ، وبانتقال الحكم إلى الأيوبيين سنة ١١٧١/٥٦٣ ، تعزَّزت أهمية المماليك ، لا سيا في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧ / ١٢٤٠ ـ ١٢٥٠) الذي اشترى المزيد من المماليك ، وبنى لهم الثكنات في القلعة التي أنشأها بجزيرة الروضة في النيل ، فدُعي هذا القسم منهم بالمماليك البحرية الذين أتيح لهم بعد ذلك أن يتولوا الحكم في مصر .

وساعد على الإكثار من المماليك بالديار المصرية والشامية كثرة أسواق الرقيق التي انتشرت في حواضر البلاد ، حيث لم يقتصر الأمر على سبايا الحرب وأسراها ، بل كان يتدفق إلى البلاد الشامية والمصرية سيل من أبناء القبائل الشرقية المغلوبة على أمرها لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم بأثمان باهظة ، حتى « كان الآباء ، والحالة هذه ، لا يرون غضاضة في بيع فلذات أكبادهم للنخاسين » (١) .

---

(١) موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر : ٣٣ .

وحرص المماليك على وضع نظام خاص لتربية الأطفال الجدد الذين انضموا إلى صفوفهم ، كي يضمنوا رقيهم في أغلب ميادين الثقافة ، فأنشأوا لهم مدارس يتعلمون فيها القراءة والكتابة وكثيراً من المعارف والعلوم بما فيها علوم الدين والفلسفة ، إضافة إلى تدريبهم في معاهد خاصة على صناعة الحرب والفروسية ، من هنا لم يكن غريباً أن ينبري هؤلاء المماليك للدفاع عن البيئة التي احتضنتهم وترعرعوا في كنفها ، والقيم والمبادىء التي اعتنقوها ، والثقافة التي اكتسبوها ؛ فصحيح أن المماليك ليسوا عرباً ، لكن هؤلاء الذين جُلبوا إلى الشام ومصر أطفالاً صغاراً قد نشأوا في بيئة عربية خالصة ، وتعلموا منذ نعومة أظافرهم اللغة العربية ، وتلقوا أصول الدين الحنيف على أيدي جماعة مختارة من الفقهاء والمشايخ العرب ، فشبوا لا يعرفون ديناً غير الإسلام ، ولا وطناً غير الوطن العربي ، مما جعلهم يحسون الأحاسيس نفسها التي شعر بها معاصروهم من العرب إزاء الأخطار الخارجية الكبرى ، فوضعوا أيديهم في أيدي أبناء مصر والشام ، وسار الجميع تحدوهم فكرة تحرير البلاد من الإفرنج الذين حاولوا جاهدين أن ينزعوا عن تلك البلاد ما اتسمت به من طابع عربي خلال فترة ناهزت الخمسة قرون .

وإذا كانت الحقبة التي ندرسها تقتصر على ثلاثين من السنين ، لكنها ، وبالرغم من قصرها ، غنية بأحداث تاريخية هامة ، أدخلت تطورات نوعية على المشرق العربي عامة ولبنان * خاصة ؛ وهي هامة لأنها شهدت أولاً انحسار الخطر المغولي عن بلاد الشام ، بعد أن كاد المغول يجهزون على معالم الحضارة العربية بإسقاطهم بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ، ولأنها ثانياً

---

* نشير هنا إلى أن لبنان ، بالمعنى الذي نقصد اليوم ، لم يكن معروفاً في ذلك الحين ، فتاريخ لبنان منذ الفتح العربي في القرن السابع الميلادي ، وحتى مرحلة متأخرة من الحكم العثماني لم يكن متيسراً فصله عن تاريخ بلاد الشام ، فمناطقه كانت موزعة على نيابات (إيالات ، ولايات . .) شامية عدة ، وما استعمالنا لمصطلح لبنان في هذا السياق إلاّ على سبيل التحديد المصطنع .

أفشلت مشاريع ملوك أوروبا الاستعمارية ، وأنقذت بلادنا من الوقوع في براثنها لفترة مديدة من الزمن زادت على ستة قرون .

واستعاد لبنان ، كغيره من الأقطار العربية المشرقية ، وحدته السياسية تحت لواء سلطة مركزية صارمة تمثّلت «بحكومة» القاهرة المملوكية ، هذه الوحدة التي كان لبنان قد عرفها منذ الفتح العربي سنة ٦٣٦ م ، والتي استقرت أيام العهد الذهبي للعصر العباسي ، وضاعت إبان عصر الدويلات ، وبشكل خاص أيام الحكم الصليبي الذي اعتمد أبشع الأساليب لتثبيت أقدامه في البلاد ، أقلها سياسة التفرقة الدينية بين السكان .

كل هذه الاعتبارات كانت خير مشجع لي للكتابة في هذه الحقبة ، فكانت هذه الدراسة التي جعلتها في ثلاثة فصول ؛ تناول أولها ما كان عليه الوضع في بلاد الشام عشية الفتح المملوكي ، وفيه تحدثت عن توزع القوى الرئيسة في بلاد الشام من فرنجة في السواحل ، ومغول في الداخل ، وبقايا وجود اسلامي تمثل ببعض الأمراء الأيوبيين في حمص وحماه . وكان من الطبيعي أن أخصص الفصل الثاني لتسليط الأضواء على العلاقات بين القوى التي تتوزع النفوذ في تلك المنطقة ؛ فتحدثت عن العلاقات التي كانت قائمة داخل المجتمع الصليبي ، وبينه وبين كل من المغول والمسلمين .

أما الفصل الثالث الذي حمل عنوان « الفتوحات العظمى» ، فقد تعرّضت فيه للأخطار التي كانت تتهدد الديار المصرية ، بعد اجتياح المغول للبلاد الإسلامية الأخرى ، واتخذت من وقعة «عين جالوت » مادة لتبيان ما لتلك الوقعة من أهمية في تدعيم دولة المماليك ، وأسبقت ذلك بإبراز معالم السياسة التي اعتمدها المماليك في حروبهم ضد المغول والصليبيين من تحصّن بالمعاهدات والأحلاف ، واستفراد للخصوم ، إلى رفع راية الجهاد ضد أعداء الدين ، فكانت هذه السياسة بمثابة الدعامة التي وطّدت دعائم السلطنة المملوكية بصورة نهائية ، وساهمت بالتالي في بسط نفوذها على الأقطار العربية المجاورة لفترة طويلة من الزمن، ثم أسهبت في الحديث عن المواجهة بين

المماليك والصليبيين والتي انتهت بتحرير لبنان من السيطرة الصليبية، هذا التحرير الذي تمَّ في إطار تحرير بلاد الشام برمتها وتوحيدها بزعامة مصر .

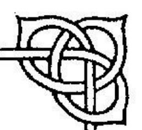
واستندت في دراستي هذه إلى المصادر التاريخية الموثوقة والمراجع المعتمدة ، جاعلاً من أقوال المؤرخين المعاصرين ، وبعضهم شهود عيان ، خير إسناد لما توصلت إليه من نتائج ، معرضاً عن الأفكار المسبقة والشيوع ، معتصماً بحبل الموضوعية في الدراسة والتحليل .

وختاماً ، ومع أنني لا أدَّعي تغطية جميع جوانب المسألة التي تصديت لدراستها ، على الرغم من الجهود المغنية التي بذلت ، فإنه لمن دواعي سروري واعتزازي أن أكون قد قدمت مساهمة متواضعة في توضيح بعض المعالم المظلمة من تاريخ لبنان الوسيط .

والله ولي التوفيق.

بيروت في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ .

أحمد حطيط



الفصل الأول

الوضع العام في بلاد الشام عشية الفتح المملوكي

- الصليبيون يسيطرون على الساحل .
- المغول يسيطرون على الداخل .
- بقايا وجود إسلامي (أيوبي) في بعض المدن .

١

حققت الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام ، في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، هدفها الأساسي الذي تجلّى بانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وإقامة دويلات لهم في المناطق التي احتلوها ، وقد ساعد على ذلك الانقسام الحاد الذي كانت تعاني منه بلاد الشام في ذلك الحين ، حيث أنها كانت ، قبل وصول الصليبيين ، مجزّأة إلى مقاطعات عدة يتمتع كل منها باستقلال شبه تام عن مركز الخلافة العباسية في بغداد ، فاستغل الصليبيون حالة الوهن والتفسخ هذه ، وبسطوا سيطرتهم على كافة الأرجاء الشامية ، حيث وجّهوا اهتمامهم بادىء الأمر إلى اخضاع مدن الساحل لأن تحقيق هذه الخطوة يسهّل عملية احتلال القسم الداخلي من البلاد من جهة، ويعزز الإتصال البحري مع أوروبا من جهة ثانية، فاستعانوا بالأساطيل الإيطالية التي خفت إلى تلبية الطلب ، إذ وجدت الدويلات الإيطالية الثلاث ، جنوا ، البندقية وبيزا، بذلك فرصة ذهبية لتحقيق أطماعها التجارية في بلاد الشام عبر بسط سيطرتها على المدن الساحلية ، وفتح أسواق جديدة وموانىء حرة لبضائعها فيها .

وبعد أن استتب لهم الأمر ، أنشأ الصليبيون في رقعة البلاد الإسلامية ثلاث مقاطعات هي : إمارة الرها ، وكونتية طرابلس ، وإمارة أنطاكية ، إضافة إلى مملكة القدس التي كانت تتبع لها هذه المقاطعات الثلاث ؛ الرها كانت إمارة برغندية ، ومثلها القدس ، أما أنطاكية فنورمندية ، وطرابلس فبروفنسالية .

وانحصرت سيطرة الصليبيين في سورية الشمالية وبالشريط الساحلي الممتد من ميناء الإسكندرونة شمالاً حتى مدينة يافا جنوباً [(١)] ، « فكانت منطقة نصرانية ضيقة يجاورها من الخلف أرض إسلامية واسعة » [(٢)] . أما مدن الداخل كحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق ، فلم تذعن لمشيئة الافرنج أبداً « مع أن بعضها أدى الجزية أحياناً؛ ففي عام ١١٥٦/٥٥٢ أدت دمشق للافرنج ، في عهد نورالدين زنكي ، ثمانية آلاف دينار مقاطعة » [(٣)] .

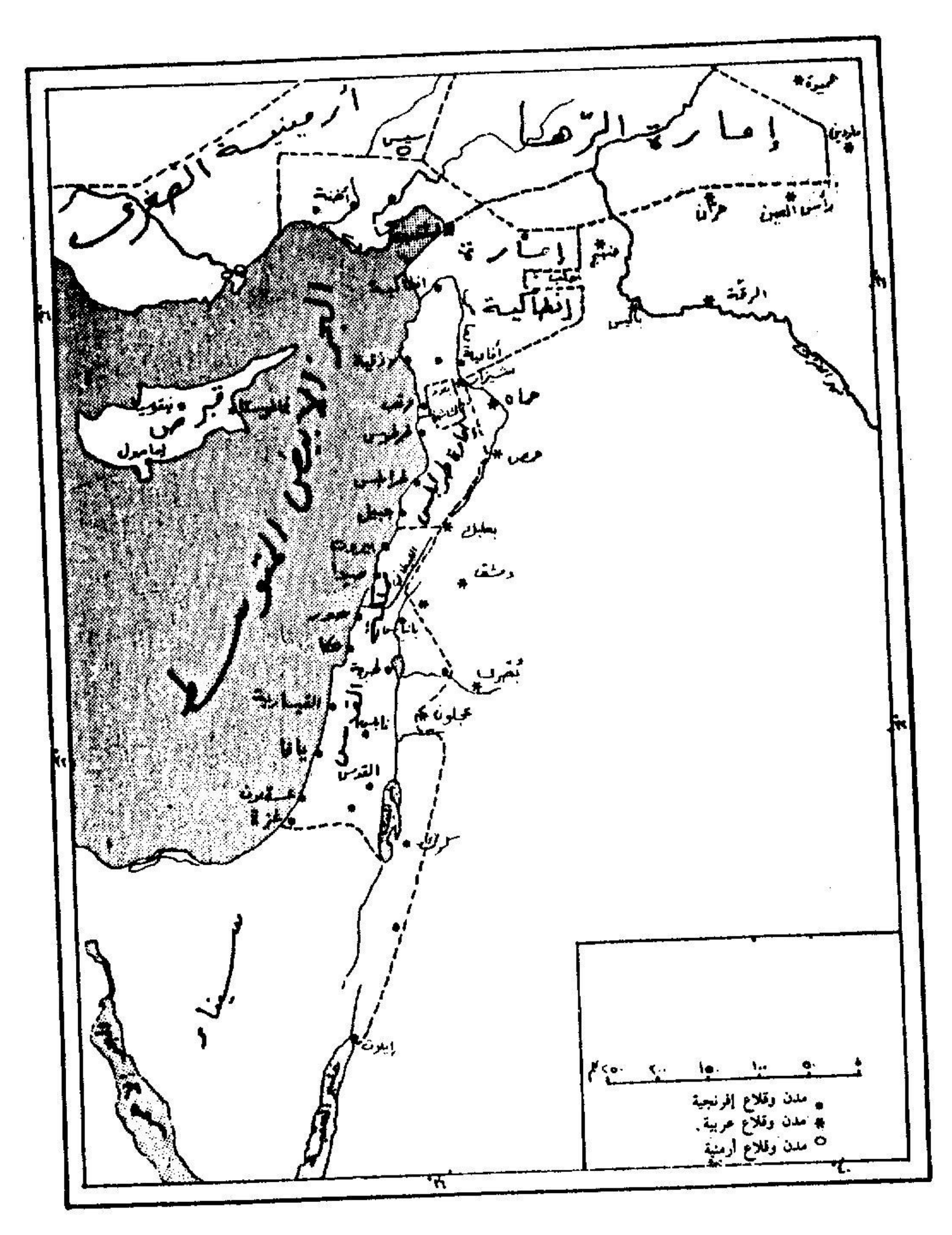
وكانت المناطق الصليبية في جنوبي لبنان ووسطه تابعة بكاملها للمملكة اللاتينية في القدس ، بينما كان شمالي لبنان تابعاً لكونتية طرابلس ، التي كان يحكمها آل سان جيل (St. Gilles) ، من تولوز (Toulouse) ، والتي امتدت من شمالي طرطوس حتى نهر الكلب ، شمالي بيروت ، وكانت منطقة جبيل تشكل بحد ذاتها بارونية تتمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي ، تحكمها عائلة أمبرياتشو (Embriaco) ، الجنوية الأصل ، والتي قدر لها أن تحكم جبيل طيلة الوجود الصليبي في الشرق ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى المساعدة الكبرى التي قدمها الجنويون للصليبيين بتولي أسطولهم عملية الحصار لطرابلس

---

(١) انظر الخارطة على الصفحة التالية Grousset , L'Empire des Steppes, p. 433 - 434 et Histoire des Croisades, III, P. 549.

(٢) حتي ، تاريخ العرب المطول، ج٢ : ٧٦١ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق: ٣٣٦ .



خارطة الدويلات الصليبية في بلاد الشام

وللسواحل اللبنانية ، وقد حصل الجنويون أيضاً على ثلث جبيل وامتيازات تجارية عديدة . وكانت كونتية طرابلس تتمتع باستقلال شبه تام عن مملكة القدس باعتبار « أن علاقة صاحبها بالملك الصليبي في القدس كانت علاقة تبعية إسمية فقط . . . »[١] . نضيف إلى ذلك أن بوهيمند السادس (Bohémond VI) أمير طرابلس ، كانت تربطه بجاره في الشمال ، هيثوم الأول (Héthoum I)، أرمينية ، علاقة وثيقة ناتجة عن زواجه من ابنته[٢] .

أما بيروت فقد كانت تابعة مباشرة لملك القدس ، « إذ كان الملك يعيّن من قبله من يشاء من الأمراء الصليبيين . . . »[٣] . وكذلك فإن صيدا وصور كانتا بارونيتين صليبيتين . وقد عظم شأن صيدا في عهد أسيادها ، من عائلة «غوتيار» (Gautière) ، الذين نشطوا إلى توسيع رقعة أراضيها حتى أصبحت « تشمل المنطقة الساحلية الممتدة من الدامور حتى الليطاني . . . »[٤] .

وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق هو أن الصليبيين قد اعتمدوا في حروبهم ، في الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، على منظمات عسكرية ـ دينية أبرزها منظمتا الأسبتار (Les Hospitaliers) والداوية (Les Templiers) (فرسان المعبد)[٥] في سورية ولبنان، ومنظمة فرسان التوتون (Les Teutons) في فلسطين[٦]، ولقد أبلى فرسان هذه المنظمات بلاء حسناً في هذه الحروب، وشاع عنها وفرة أملاكها وكثرة عدد رجالها «الذين كانوا يقاتلون من أجل الإيمان»[٧].

وكانت طائفة الأسبتار أكبر هذه الطوائف وأكثرها غنى ، وقد درجت على أن توزع على الفقراء كل يوم من الصدقات « ما أثار سخاؤهم بها دهشة

(١) Grousset, Histoire, III, p. 549.

(٢) Ibid., p. 515.

(٣) و (٤) Ibid ., p. 549.

(٥) فرسان المعبد حركة كالحركة الماسونية ما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

(٦) Cahen, Orient et Occident au temps des Croisades, p. 162 - 163.

(٧) رنسيمان ، الحروب الصليبية ٢ ، ٥٠٠ .

الزائرين [1] ». وتولى الأسبتار والداوية حراسة الطرق التي يسلكها الحجاج [2] ، كما وجهت الطائفتان اهتماماً خاصاً إلى المواضع المقدسة للإغتسال في نهر الأردن ، وقام الداوية أيضاً بتوزيع الصدقات ، غير أنهم لم يضارعوا الأسبتارية في البذل والعطاء ؛ إذ أن الأمور الحربية كانت أكثر ما جذب اهتمامهم ، وما حازوه من الشهرة يرجع إلى شدة بأسهم في الهجوم وإلى أنهم نذروا أنفسهم للحرب الهجومية [3] .

وكانت هاتان الطائفتان تدينان بالولاء للبابا وليس للملك [4] ، فلم يحارب فرسانهم مع جيوش الملك إلاّ على أساس أنهم حلفاء ومتطوعين. وكانت المنافسة مستمرة بين الداوية والأسبتارية، وقلما اشتركا معاً في نشاط حربي واحد ، ولكل منهما خطته وطريقته بمعزل عن سياسة ملك القدس ؛ إذ أن كل من الطائفتين قد عقدت معاهدات منفردة مع المسلمين ، وليست قصة مفاوضات الداوية مع الحشاشين ٥٦٨/ ١١٧٢ م إلاّ دليلاً على استقلاليتهم عن السياسة الرسمية لمملكة بيت المقدس [5] ، وبالرغم من كل ذلك ، فإن تاريخ الحروب الصليبية حافل بالمساهمات الجلى التي قدمتها كلتا الطائفتين لتدعيم الوجود الصليبي في الشرق ، لا سيما بالنسبة لكونتية طرابلس ، حيث كان لصمودهم وشراستهم في القتال الفضل الأكبر في حفظ الكونتية من السقوط بأيدي المسلمين ، أيام نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، إذ كوّنوا القوة العسكرية الدائمة والمتحركة لصد أي هجوم ، زد على ذلك أنهم كانوا يجسدون الطابع الديني في جميع الإمارات والبارونيات الصليبية ، في الوقت الذي انصرفت الجماعات الإيطالية المقيمة على طول الساحل ، إلى تسخير الوجود الصليبي في خدمة مصالحهم الإقتصادية والتجارية ليس إلاّ.

---

(١) رنسيمان، الحروب٢: ٥٠١ ـ ٥٠٢ .

(٢) Cahen, Orient, p. 162.

(٣) رنسيمان ، الحروب ٢ ، ٥٠٢ .

(٤) Cahen, op. cit., p. 162.

(٥) رنسيمان ، المرجع السابق : ٥٠٣ .



وتعتبر غزوة المغول للعالم الإسلامي من الظواهر الهامة التي تميز بها منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، تلك الغزوة التي أحدثت ، أو كادت أن تحدث ، لما رافقها من خراب ودمار ، تغييراً نوعياً في تاريخ وحضارة العالم الإسلامي في القرون الوسطى ؛ لقد كانت حملات جنكيز خان بداية لسلسلة من الهجمات المغولية على العالم الإسلامي ، التي خلفت من الدمار والتخريب ما لم يشهد مثله في التاريخ ؛ فبعد أن وطد هذا القائد العظيم أركان أمبراطوريته الشاسعة ، التي امتدت من أطراف الصين الشرقية إلى إيران ووادي السند في الهند [١] ، أخذ يعد العدة لغزو المشرق الإسلامي بقصد السيطرة على الخلافة الإسلامية أو تدميرها [٢] ، ذلك لأن رعاياه من المسلمين كانوا من الكثرة ، وأنه أضحى من الأمور الجوهرية بالنسبة إليه أن يسيطر على أهم نظام ديني في العالم الإسلامي ، لكنه توفي سنة ١٢٢٧/٦٢٤ قبل أن يتسنى له تحقيق هذا الحلم ، فعهد هذا الأمر لحفيده هولاكو [٣] .

وفي سنة ١٢٥٦/٦٥٤ ، عبر الجيش المغولي نهر جيحون بقيادة هولاكو ، فاستولى على قلاع الحشاشين ، الواحدة تلو الأخرى ، وخاصة حصن آلموت المنيع الذي سقط في المحرم عام ٦٥٥/ ١٢٥٧ [٤] ، ثم ولج إلى بغداد التي سقطت بيده يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦/ ١٠ شباط ١٢٥٨ ، فأحدث فيها مجزرة رهيبة لم يسلم منها الخليفة المعتصم نفسه [٥] ،

---

(١) Grousset, Empire, P. 269-306.

(٢) و (٣) Rachîd ed-dîn, traduction Quatremère, P. 145; D'Ohsson, Histoire des Mongols, III, P. 135; Grousset, Op. Cit., P. 309.

(٤) Rachîd ed-dîn, Ibid., P. 217, 219; D'Ohsson, Ibid., P. 197; Grousset, Ibid., P. 427; Cahen, Orient, P. 197.

(٥) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول: ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ؛ أبو الفدا، كتاب المختصر في أخبار البشر ٣: ١٩٣ ـ ١٩٤ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧: ٤٩ ـ ٥٠ ؛
Rachîd ed-dîn, Ibid., P. 299; Grousset, Ibid., P. 429-430.

فقتل هو وولداه وكل من وقع بين يدي المغول من العباسيين . وكان لسقوط بغداد أثر عميق في جميع أنحاء آسيا « فابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا ، إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية . . . » [1] . أما المسلمون فاعتبروا سقوط بغداد وتخريبها صدمة عنيفة وتحدياً مخيفاً ، لا سيما وأن ذلك قد أدى إلى شغور في زعامتهم ، وخلق بالتالي بلبلة في صفوفهم تجلت في التنافس بين زعمائهم على احتلال مركز الخلافة [2] .

من ثم وجه هولاكو اهتمامه إلى الشام ، بعد أن أحكم سيطرته على الجزيرة الفراتية بهزيمته للملك الأيوبي الكامل محمد الذي كان يحكم ميافارقين ، والذي رفض قبول السيادة المغولية [3] ، وعندما علم الناصر يوسف صاحب حلب ما حل بنسيبه الكامل محمد خف إلى هولاكو مظهراً له الولاء والطاعة[4]. وفي رمضان سنة ١٢٥٩/٦٥٧ قاد هولاكو الجيش المغولي للاستيلاء على شمالي غربي سوريا، وتولى كتبغا (Kitbugha) مقدمة الجيش، فاجتاز نصيبين وحران والرها حتى بلغ البيرة حيث عبر الفرات واستولى على سروج بعد مقاومة[5] . وفي أوائل سنة ١٨/٦٥٨ كانون الثاني ١٢٦٠ حاصر المغول بقيادة هولاكو شخصياً وبمشاركة من الأرمن والصليبيين حلب التى كان يدافع عنها الملك الأيوبي توران شاه ، فسقطت المدينة فى الرابع والعشرين من الشهر ، باستثناء القلعة التى صمدت حتى الخامس والعشرين من الشهر التالي، بعد أن « قتل هولاكو في حلب أكثر ممن قتل في

---

(١) Kirakos de Kantzag, J.A., I., Juin 1859, P. 492; Grousset, Ibid., P. 430-431.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ٣: ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٣/٢: ٥٠٠ - ٥١٠ ؛ أبو الفدا ٣: ١٩٧ ، ٢٠٣ ؛ D'Ohsson, Histoire, III, P. 307 ; Grousset, Empire, P. 434-435.

(٤) أبو الفدا ٣: ١٩٧ ، ٢٠٤ ؛ رنسيمان، المرجع السابق: ٥٢٣ .

(٥) ابن العبري: ٢٧٩ ؛ أبو الفدا ٣: ١٩٩ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧: ٤٧ ; D'Ohsson, Op. Cit., III, P. 308-309 ; Grousset, Op. Cit., P. 435.

بغداد»[1]، ولم يسلم منها سوى المسيحيين الذين لم يتعرض لهم بسوء، «باستثناء جماعة من الأرثوذكس الذين لم يعترف بكنيستهم»[2] . ووصل إلى هولاكو وهو على حلب الملك الأشرف موسى بن إبراهيم صاحب حمص ، فأكرمه وأعاد إليه حمص بعد أن كلفه بتدمير سور قلعة حماه وإحراق زردخانتها[3]، ثم استولى على حصن حارم، ووزع بعدها هولاكو الغنائم على حلفائه، فمنح ملك الأرمن هيثوم قدراً من الغنائم التي حازها من حلب، كما كافأ بوهيمند أمير أنطاكية جزاء على مساعدته، فتقرر أن يعيد إليه بعض المدن والحصون التي ظلت بأيدي المسلمين منذ أيام صلاح الدين[4].

وتابع المغول زحفهم باتجاه دمشق ، ولم يحاول السلطان الناصر يوسف أن يدافع عن عاصمته ، إذ أنه حينما علم بسقوط حلب واقتراب المغول من دمشق ، فر إلى الديار المصرية ، وفي صحبته المنصور صاحب حماه ، عندئذ قدّم كبراء حماه مفاتيح بلدهم إلى هولاكو الذي كان موجوداً في حلب ، وطلبوا الأمان ، فكان لهم ذلك سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠ ، ولم تمض سوى بضعة أيام حتى حذا حذوهم أعيان دمشق[5] . فدخل كتبغا دمشق، في ربيع الأول سنة ٦٥٨ / أول آذار ١٢٦٠ ، على رأس جيش مغولي وبصحبته هيثوم ملك أرمينية وبوهيمند أمير أنطاكية ، وشهد سكان العاصمة السابقة للخلافة لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة أمراء مسيحيين يركبون معاً ، يشقّون بموكبهم شوارع

---

(١) أبو الفدا ٣: ٢٠٠ ـ٢٠١؛ محمد كرد علي، خطط الشام، المُجلد الأول، الجزء الثاني: ١٠٤ ـ ١٠٦؛ Grousset, Op. Cit., P. 436

(٢) أبو الفدا ٣ : ٢٠١ ؛ رنسيمان ، المرجع السابق : ٥٢٤ .

(٣) ابن العبري : ٢٧٩ ؛ أبو الفدا ٣ : ٢٠٢ .

(٤) رنسيمان : ٥٢٦; Hayton, La flor des Estoires d'Orient, Histoire des Croisades, Documents Arméniens, II p. 171 ; Grousset, op. cit., p. 436.

(٥) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ٥: ٢٤٢؛ أبو الفدا ٣ : ٢٠٢ ؛ ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ١/ ٢ : ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ Grousset, Empire, p. 436.

المدينة ، على أن قلعة دمشق ظلت صامدة لبضعة أسابيع ، لكنها اضطرت إلى الاستسلام في ربيع الثاني عام ٦/٦٥٨ نيسان ١٢٦٠ (١) .

وبعد سقوط دمشق استولى المغول على بعلبك وخرّبوها ، ثم تابعوا زحفهم جنوباً ، فاستولوا على عجلون والسلط وبُصرى والصبيبة وهدموا قلاعها (٢) ، كما هاجموا صيدا الصليبية ونهبوها وأسروا منها ثلاث مائة أسير ، وغادروها بعد أن خلفوها أكواماً من تراب ، ثم اتجهوا إلى حوران ونابلس فخربوهما ، وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبرين والخليل ، وظل التتار يتنقلون في بلاد الشام حتى فتحوها إلى غزة . « وقصارى القول أنه خلال مدة وجيزة ، تمّ الاستيلاء على بغداد وديار بكر وديار ربيعة والشام بأسرها ، ودخلت في حوزة نواب هولاكو » (٣) .

وهكذا بسط المغول سيطرتهم الكاملة على سورية الداخلية بعد أن عاثوا فيها تقتيلاً وتدميراً ، وبسقوط المدن الثلاث الكبرى ، بغداد ، وحلب ودمشق ، إلى جانب الساحل الشامي ، بدا الإسلام في عرب آسيا وكأنه على شفير الهاوية ، لكن ظهور دولة المماليك في مصر بعث الأمل من جديد ، إذ أنهم بعد أن وطّدوا دولتهم في مصر ، خرجوا إلى بلاد الشام ، وطردوا المغول والصليبيين منها ، وأعادوا السيطرة الإسلامية عليها .



وكانت السلطنة الشاسعة التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي ، والتي امتدت من دجلة حتى النيل تحمل بين طيّاتها بذور ضعفها وتفكّكها، فعندما

---

(١) أبو الفدا ٣ : ٢٠٣ ؛ رنسيمان ٣ : ٥٢٨ ؛ Grousset, Empire, P. 436.

(٢) أبو الفدا ٣ : ٢٠٤ .

(٣) رشيد الدين ، جامع التواريخ ١ : ٣٠٨ .

توفي صلاح الدين في ربيع الأول سنة ٥٨٩/ أوائل آذار ١١٩٣ ، تهاوت هذه السلطنة وتقوضت أركانها بفعل الخلافات المريرة التي نتجت عن تنافس أبنائه السبعة عشر على السلطة ، مما أدى إلى إضعافها وتشتتها ؛ ففي دمشق خلفه ابنه الملك الأفضل نورالدين علي ، وفي القاهرة ابنه الملك العزيز عثمان ، وفي حلب الملك الظاهر غازي[١] . أما أخوه الأصغر وأمين أسراره الملك العادل فقد ولي الكرك والشوبك حتى سنة ١١٩٦/٥٩٣ ، وعندما نشبت الفتنة بين أبناء صلاح الدين وأخوته ، اغتنم الملك العادل الفرصة واستولى على السلطة في كل من مصر ومعظم بلاد الشام [٢] .

وبعد وفاة العادل سنة ٦١٥/ ١٢١٨ نشأت عدة أسر أيوبية كلها متحدرة منه وملكت في مصر ودمشق والعراق [٣] . وقامت أسر أيوبية أخرى متحدرة من سواه فتولت أمور حمص وحماه واليمن ، وكان أصحاب مصر الأيوبيين هم الفرع الرئيسي لهذه الدولة ، وكثيراً ما نافسوا أنسباءهم الدمشقيين على سيادة سورية [٣] . وقد أدت المنازعات العائلية بين الأيوبيين إلى سقوط المدن ، التي كان صلاح الدين قد فتحها ، في أيدي الافرنج ، الواحدة تلو الأخرى ، من بيروت إلى عسقلان ، حتى أن الملك الصالح إسماعيل الأيوبي عمد إلى تسليم صفد والشقيف إلى الافرنج دون قتال [٤] ، «مما لم يعهد له مثال في تاريخ بني أيوب»[٥]، وقد حاصر الصالح هذا قلعة

---

(١) عماد الدين الكاتب، الفتح القسي : ٣٥٨ـ ٣٥٩؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ : ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٩ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٦ : ٣٢٧ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢ : ٩٢٦ .

(٣) ابن الأثير ، المصدر نفسه : ٣٢٧ .

(٤) سلّم الملك الصالح إسماعيل شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي سنة ٦٣٨/ ١٢٤٠ . راجع : أبو شامة ، الذيل على الروضتين : ١٧٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ٥ : ٣٠٢؛ أبو الفدا ٣ : ١٦٩ ؛ ابن تغري بردي النجوم ٦ : ٣٣٨ .

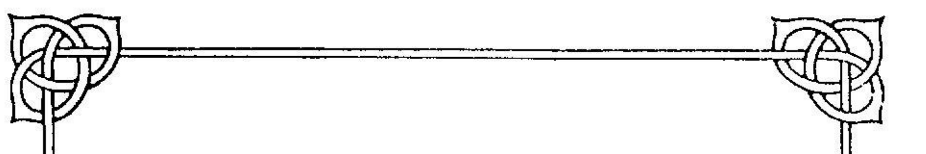
(٥) محمد كرد علي ، خطط الشام ١/ ٢ : ٩٧ .

الشقيف في جنوبي لبنان لأن حاميتها المسلمة رفضت تسليمها للصليبيين ، ثم احتلها وسلّمها للصليبيين ، وعاقب أفراد الحامية ، مما أثار الشيخ الشافعي عبدالعزيز بن عبدالسلام خطيب جامع دمشق ، والشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي ، ففارقا دمشق إلى الديار المصرية [1] .

أما الفروع التي حكمت شمالي سورية ، فقد قضى عليها المغول سنة ١٢٦٠/٦٥٨ ، ولم يبق من الوجود الأيوبي في بلاد الشام ، في أعقاب الهجوم المغولي ، سوى حمص التي تآمر صاحبها مع المغول وحماه التي صمدت بالرغم من الصعاب التي واجهتها لفترة طويلة ، لكنها وجدت نفسها ، إزاء تخاذل الأيوبيين ، مجبرة على تقديم الطاعة مقابل الأمان ، وهذا ما حصل .

---

(١) Elisséeff, art. «Kal'at al-Shakīf», EI^2, IV, P. 503 b - 505 a.



الفصل الثاني
العلاقات بين القوى الأساسية في بلاد الشام

ـ العلاقات داخل القوى الصليبية .

ـ العلاقات بين الصليبيين والمغول .

ـ العلاقات بين المماليك والقوى المتواجدة في بلاد الشام :

- المماليك والأيوبيون .
- المماليك والصليبيون .
- المماليك والمغول .

١

وحتم التجاور بين هذه القوى أن تقوم فيما بينها علاقات ، تقاذفها مدّ وجزر ، بسبب الظروف القائمة في تلك المنطقة التي كانت محط أنظار العالم المعروف في ذلك الحين ؛ فعلى هذا كان علينا أن نبحث في طبيعة الأجواء السائدة داخل المجتمع الصليبي ، والتي عكست عداء مستميتاً فرضه تضارب المصالح التجارية بين الحكومات الإيطالية من جهة ، والتنافس الدموي على النفوذ والسيطرة بين زعماء الصليبيين من جهة أخرى ، كما أن التعاون بين الصليبيين والمغول لم يكن حسبما توقع هؤلاء ، مما أفسح في المجال أمام المماليك كي يدعموا نفوذهم على حساب الأطراف الرئيسية ، المتواجدة في بلاد الشام ، من مغول وصليبيين وأيوبيين .

إن الحروب الصليبية التي خاضها ملوك وأمراء أوروبا تحت شعار تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، سرعان ما تكشّفت عن حقيقة أهدافهم ومقاصدهم التي تجسدت في تحقيق مطامعهم بإقامة دويلات لهم يسيطرون من خلالها على خيرات الشرق ، ودليلنا على ذلك هو أنه بُعيد احتلالهم لبلاد الشام ، نشب الصراع بين أولئك الملوك والأمراء لتزعم

الامارات الثلاث التي أنشأوها ، وكذلك للوصول إلى عرش المملكة التي أقاموها في بيت المقدس ، « وامتلأت قلوب الزعماء بروح التحاسد، فكانوا يتنافسون على المُلك ويتخاصمون في أيهم يحظى بذلك اللقب الفارغ (ملك أورشليم) »[1] . ومما زاد الطين بلة ظهور عنصر جديد في الصراع الدائر، تمثّل بالتنافس بين الإيطاليين على احتكار الامتيازات التجارية في بلاد الشام ، وقد لعب هذا التنافس ، الذي لم يخلُ من الصراع الدموي ، دوراً رئيساً على مسرح الحياة السياسية والعسكرية لدويلات الصليبيين . ويشير المؤرخ الإيطالي مانفروني كاميللو (Manfroni Camillo) إلى ذلك بقوله: «إن الجنوية والبيازنة قد دخلوا في صراع وتنافس تجاري آنذاك، لذلك استغل الجنوية الحروب الصليبية، تدفعهم في ذلك الروح الدينية، للذهاب إلى الأراضي المقدسة لمساعدة الصليبيين . ولم يكن ذلك من أجل المساعدة فحسب ، بل من أجل السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب والحصول على الربح الوفير منها، وتقوية مراكزهم ووجودهم التجاري في الشرق حيث الوفرة والثروة ، وحيث كانت القوافل التجارية تأتي محمّلة بالسلع الشرقية النفيسة الواردة إلى موانىء الشام . لذلك ذهبت الشخصيات الجنوية والبيزية الهامة إلى الشرق ، وحملت الصلبان ، ليس لمساعدة الصليبيين فحسب ، بل من أجل الثروة المتحصلة من الاتجار بالسلع الشرقية»[2] . وبدأت العلاقات تقوى بين الطليان والافرنج عندما شعر هؤلاء أنهم بحاجة إلى مساعدة أساطيل الايطاليين للاستيلاء على المدن الساحلية ، أو لتجهيز الحملات الموجّهة إلى مصر، فاعتمدوا بشكل خاص على الإيطاليين وفرنسيي الجنوب ، واشتدت الحاجة إلى مساعدتهم للابقاء على الطرق البحرية إلى الغرب مفتوحة، ولنقل الحجاج والعساكر والنزلاء الافرنج على سفنهم إلى الشرق الأدنى. غير أنه لا بد للمدن التجارية أن تتقاضى أجورها ، فلذا طلبت هذه المدن تسهيلات

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول ٢ : ٧٧٣ .

(٢) Manfroni Camillo, Storia della Marina Italiana dalle invesione Barbariche al Trattato di Ninfeo (400 - 1261), I, p. 136, 138.

وحقوقاً تجارية ، كأن يكون لها أحياء خاصة في المدن الكبرى ، والإعفاء التام أو الجزئي من رسوم الجمارك ، فوافقت سلطات الافرنج على ذلك[1].

وبفضل هذه الامتيازات أضحى التجار الإيطاليون يمثلون أنشط العناصر التجارية في كل ميناء في الشرق الإفرنجي ، إذ سيطرت جمهوريات ايطاليا الثلاث ، بيزا وجنوا والبندقية ، على تجارة البحر الأبيض المتوسط لما لها من جاليات في كل ميناء على طول الساحل الشرقي للمتوسط . وفيما عدا ما اشتهر به الداوية (فرسان المعبد) من أعمال الصيرفة، أمدت تجارة الإيطاليين الشرق الإفرنجى بمعظم ما حصل عليه من موارد، كما أنها كانت تعتبر بالغة النفع للأمراء المسلمين، إذ أن رغبتهم من حين إلى آخر فى توقيع هدنة مع الافرنج ترجع إلى حد كبير إلى تخوفهم من انقطاع هذا المصدر المدر للربح[2]. «والواضح أن المدن التجارية لم تخرج من أجل مصالح العالم المسيحى بل لتحقيق كسب تجاري لها، على أن المصالح تطابقت عادة، فإذا تصادمت رجحت كفة المصلحة التجارية المباشرة. . .»[3].

غير أن الجمهوريات الإيطالية قد اشتد بينها التنافس ، فما وقع من نزاع بين بيزا وجنوا سنة ٦٤٧/ ١٢٤٩ ، ونشوب القتال في شوارع عكا سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠ بسبب مصرع أحد التجار الجنويين على يد البنادقة ، ومن ثمّ الخلافات بين الطرفين على ملكية كنيسة القديس سابا (Saint Sabas) ، الواقعة بين الحي الجنوبي والحي البندقي ، والتي أدت إلى حرب أهلية في عكا ، هي من نتاج التسابق التجاري للسيطرة على الشرق بين الجمهوريتين الإيطاليتين[4] . ثم تجدد القتال بين الفريقين سنة ٦٥٤/ ١٢٥٦ ، فانحازت

---

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية ٢ : ٥٠٤ ـ ٥٠٥ . وعن دور الإيطاليين ، وخاصة الجنوية ، في الحروب الصليبية ، انظر : مصطفى الكناني : العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى : ٨١ ، ١٢٤ .

(٢) رنسيمان، المرجع نفسه ٣: ٤٨٦.

(٣) رنسيمان، المرجع نفسه ٢: ٥٠٥.

(٤) Grousset, Epopée, p. 371.

حين غرة(١). وكان قد اتفق ، بموجب المعاهـدة التي انعقدت حينـما تم الاستيلاء على صور سنة ٦٢٢/ ١١٢٤، على أن يكون للبندقية ثلث صور ، وعندما علم صاحب صور « فيليب دومونفـور »(Philippe de Montfort) بما حل بالبنادقة في عكا ، أخذ يعمل على جعل صور منافساً تجارياً لعكا ، لكن ماركو جوستنياني (Marco Justinieni) ، قنصل البندقية في عكا ، استطاع ، لبراعته الدبلوماسية ، أن ينشىء حلفاً بوجه هذا المشروع ، من بيزا ومرسيليا والبندقية ، مدعومين من قبل فرسان الداوية والتوتون ، وتعاطفت مع هذا الحلف عائلة إيبلان (Ibelin) صاحبة بيروت ويافا . وفي جانب جنوا كان فيليب دو مونفـور وفرسان الأسبتارية وتجار كاتالونيا (Catalans) (٢) . وبعد صراع دام سنتين بقيت عكا بيد البندقية ، بينما انسحب الجنويون إلى صور ، تحت رعاية فيليب المذكور ، وانقسمت سورية الصليبية سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ إلى منطقتين متعاديتين (٣) .

وانتقلت الخصومات إلى إمارة أنطاكية ـ طرابلس ، حيث كان أميرها بوهيمند السادس (Bohémond VI) يميل إلى البنادقة ، بينما كان ممثله برتراند (Bertrand) صاحب جبيل ، وهو من عائلة أمبرياتشو، يميل نحو الجنوية . وقد وصل الأمر بهذا الأخير أن أرسل حملة عسكرية إلى طرابلس سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ كان من نتيجتها مقتل برتراند نفسه على يد أحد القرويين ، مما أدى إلى تعميق الخلافات بين إمارة طرابلس وبارونية جبيل (٤) .

وكانت محاولة لوضـع حد للمنـازعات بـين الجمهوريـات الإيطاليـة الثلاث ، والدعوة هذه المرة كانت موجهة من بطريرك بيت المقدس جيمس

---

(١) رنسيمان ، المرجع السابق ٣ : ٤٨٧ . Grousset, Opt. cit., p. 371 - 72.

(٢)

(٣) رنسيمان ، المرجع السابق ٣ : ٤٨٩ ؛ Grousset Ibid, p. 372

(٤) رنسيمان ، المرجع نفسه ٣ : ٤٨٩ ؛ Grousset, Epopée, p. 372

بانتاليون (James Pantalion) متوسطاً البابا الذي أمر بعقد هدنة مباشرة بين الفرقاء المتقاتلين ، لكن الأسطول الجنوي ، الذي وصل إلى صور ، قطع الطريق على الوفاق المنشود ، إذ اتجه إلى عكا ، بعد أن انضمت إليه سفن جنوا في صور ، ووقعت بينه وبين تحالف أسطولي البندقية وبيزا معركة بحرية هامة قضت بهزيمة الأسطول الجنوي ، وذلك سنة ٦٥٦/ ٢٤ حزيران ١٢٥٨ ، وقد تعرض الحي الجنوي في عكا للنهب والسلب ، فقرر الجنويون الجلاء نهائياً عن عكا ، واتخاذ صور مستقراً لهم [١] . وتحددت المحاولات للوفاق سنة ٦٥٧/ ١٢٥٩ وسنة ٦٥٩/١٢٦١ ، لكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة باعتبار أن الحرب قد نشبت من جديد ، وألحقت الضرر البالغ بالتجارة وحركة النقل على امتداد الساحل الشامي [٢] .

إن الصراع داخل القوى الصليبية قد أضر بالافرنج النازلين في بلاد الشام ، إذ استطاع البيزنطيون ، في ظل هذه الأجواء ، أن يستعيدوا عاصمتهم القسطنطينية بمساعدة الجنويين لقاء امتيازات خاصة ، وبذا زالت أمبراطورية اللاتين التي أنشأتها الحملة الصليبية الرابعة [٣] .

تلك كانت حالة العلاقات داخل القوى الصليبية عشية دخول جيش المماليك إلى بلاد الشام ، وقد وصفها «رنسيمان» على أنها « حرب أهلية عمت مجتمع الشرق الافرنجي بأسره » [٤] .



وبعد أن استتب الأمر في سورية الداخلية ، حكم كتبغا باسم سيده هولاكو كلاً من الرها وحلب وحماه وحمص ودمشق ونابلس وغزة ، وكان

---

(١) رنسيمان ٣: ٤٩١ ـ ٤٩٢ .

(٢) المرجع نفسه ٣: ٤٩٣ .

(٣) ما قبله٣: ٤٩٤ .

(٤) ما قبله ٣ : ٤٨٩ .

حليفه بوهيمند السادس على أنطاكية وطرابلس وما يتبعهما كالمرقب وحصن الأكراد وأنفه والبترون وجبيل ، وكان لأميرة قبرص بليزانس (Plaisance) ، أخت بوهيمند السادس ، الحماية على قلاع المدن الساحلية كبيروت وعكا ويافا (١) ، على أن هذا التحالف ثم التجاور بين المغول والصليبيين لم يكن ليدوم طويلاً ، فبالرغم من كون كتبغا نفسه مسيحياً (٢) ، فإن المصالح الشخصية والكرامات لم تتأخر في أن تبرز سافرة بوجه التعاطف الديني ، كذلك فإن هذا التجاور نفسه أفسح مجالاً رحباً لخلاف لم يلبث أن بدت طلائعه عندما بدا للفرنج أنهم محاصرون من قِبَل المغول من كل الجهات ، وبالتالي فإنهم أصبحوا تحت رحمتهم ورهن لإرادتهم . وقد خلق هذا الخلاف الفرصة الذهبية التي استفاد منها المماليك الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعانون من أزمات حكم وثورات داخلية (٣) .

وقد يلام الصليبيون في هذا الخلاف أو لا يلامون ، فإذا نظرنا إلى معاملة المغول لهم كتابعين نجد أنه كان لا بد من إظهار بعض التعنت من قبل زعمائهم اقتداء بالقديس لويس التاسع عندما رفض أن ينصاع لشروط الزعيم المغولي مونغا (Mongka) ؛ صحيح أنه لم يكن في نية المغول مهاجمة مملكة الافرنج ، لكنهم اشترطوا الطاعة والانصياع التامين ، مما أغاظ العديد من أمراء الافرنج ، بيد أن عقلاءهم سارعوا إلى اظهار الاستعداد لتجنب إثارة المغول ، تقديراً منهم للخطر المملوكي الذي أخذ يلوح في الأفق ، ورغم ذلك « لم يكن في وسعهم أن يضبطوا مثيري الفتن عندهم » (٤). ويعتبر «جوليان» (Julien) صاحب صيدا والشقيف أشد بارونات الصليبيين تجرداً من المسؤولية ؛ فإسرافه وتبذيره أجبره على أن يرهن صيدا لدى الداوية الذين

---

(١) Grousset, Histoire, III, p. 591.

(٢) كان كتبغا مسيحياً على المذهب النسطوري . Grousset, Empire, p. 430.

(٣) Grousset, Histoire, III, P. 593.

(٤) رنسيمان ، الحروب الصليبية ٣ : ٥٢٩ .

اقترض منهم أموالاً طائلة ، كما أن خشونة طبعه ورِّطته في خصام مع نسيبه « فيليب » سيد صور ، فقد كان قصير الرؤيا السياسية ، إذ اعتبر أن ما نشب من حروب بين المغول والمسلمين هو بمثابة فرصة سانحة تهيأت له كيما يغير من الشقيف على سهل البقاع الخصيب ، فكان لا بد أن يصطدم بكتبغا الذي لم يكن ليسمح للمغيرين أن يقوضوا ما أقامه المغول حديثاً من نظام ، فأرسل ابن أخيه على رأس فرقة لردع المعتدين واسترجاع الأسلاب ، لكن جوليان أرسل من كمن له وقتله [1] .

ولم يسكت كتبغا عن هذه الإهانة الشخصية التي أودت بحياة أقرب المقربين إليه ، فطرح ميله للمسيحية جانباً ، وأخذ ينذر ويتوعد ، ثم أرسل جيشاً إلى صيدا وقتل العديد من أهلها ودمر أسوارها وأحرق دورها ، ولم ينقذ قلعة البحر منها إلاّ سفن جنوية قدمت من صور ، ثم تلا ذلك ، بعد فترة وجيزة ، حادثة أخرى مشابهة وتّرت الأجواء من جديد بين الفريقين ، تمثلت بإغارة « يوحنا الثاني » (Jean II) صاحب بيروت ، يعاونه فرسان الداوية وأمراء بيروت وجبيل ، على الجليل ، وقد لقيت من القوات المغولية معاملة بالغة الشدة [2] .

٣

وبعد أن وفرَّ المماليك القوة العسكرية اللازمة للسيطرة على الحكم في مصر ، كان عليهم أن يضمنوا لهم ولاء المسلمين في بلاد الشام . ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام عائق هام تمثل بتعلق سكان دمشق بالبيت الأيوبي ، إذ أن هؤلاء لم يرضوا بالخضوع لسلطة المعز أيبك ، بل وجهوا نداء إلى الناصر يوسف ملك حلب الأيوبي يدعونه فيه إلى تسلم أمور مدينتهم ، فأتاها في سنة

---

(١) Hayton, La flor des Estoires, P. 174; Grousset, Empire, P. 438 et Histoire, III, P. 594.

(٢) Grousset, Empire, p. 437.

٩/٦٤٨ تموز ١٢٥٠ ، فأقر المماليك بالأمر الواقع ، واستكانوا إلى حين ، تجنباً لخلقِ متاعب محلية إن في سورية أو في مصر ، فأتوا بطفل من السلالة الأيوبية ونصبوه سلطاناً على أن يمارس السلطات مع المعز أيبك ، ولم يكتف الأيوبيون بهذا الحد بل ساروا إلى غزة ، واستولوا عليها دون مقاومة ، وأصبحوا بالتالي يهددون الدلتا ، فكسب الناصر يوسف والحالة هذه رضى الأوساط الإسلامية في بلاد الشام (١) .

لكن المماليك عرفوا كيف يتدبرون الأمر ، فاستعانوا بالخلافة العباسية ونادوا بالمعتصم بالله العباسي خليفة على البلاد ، وبالمعز أيبك نائبه فيها (٢) ، ومن ثمّ وجه المعز إلى غزة حوالي ألفي فارس استعادوها في رجب ٦٤٨ (٣)، فغضب الأيوبيون لكرامتهم ، على الرغم من أنهم كانوا في وقت ما قد فكروا بعزل الناصر يوسف وإقامة الملك المغيث فتح الدين عمر ابن العادل الأيوبي مكانه، وأرسلوا حملة إلى مصر كان نصيبها الفشل في موقعة العباسة في ١٠ ذي القعدة سنة ٢/٦٤٨ شباط ١٢٥١ (٤) ، على أن هذا لم يثن من عزيمة الأيوبيين ؛ فالحركات المناوئة في الكرك كانت لا تزال دليلاً على ذلك ، وعندما بدأ هولاكو زحفه باتجاه العراق ، أيقن الأيوبيون أنهم يواجهون الخطر الأكبر ، عندها لم ير الناصر الأيوبي بدّاً من التقرب من هولاكو ، فأرسل إليه الوفود سائلاً نجدته لأخذ مصر من المماليك (٥) ، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أن الملك الكامل محمد الأيوبي قد قتل كاهناً من اليعاقبة يحمل ورقة مرور مغولية في ديار بكر ، فكانت معركة ميافارقين ، حيث بُدىء بإخضاع الأيوبيين ، بعد أن قتل المغول الملك الكامل

---

(١) Grousset, Histoire., III, p. 498.

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٣ : ١٨٣ ؛ المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢ : ٣٧٠ .

(٣) المقريزي ، المصدر نفسه : ٣٧٠ .

(٤) أبو الفدا ٣: ١٨٤ ـ ١٨٥؛ المقريزي ١/ ٢: ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٣٧٢ ـ ٣٧٨.

(٥) أبو الفدا ٣ : ٢٠٤ ؛ المقريزي ١/ ٢ : ٤١٠ ـ ٤١١ .

وشنعوا فيه ، ولم ينج من سكان ميافارقين غير المسيحيين ، فكانت هـذه المعركة بادئة الفتوحات المغولية التي استمرت نحو بلاد الشام التابعة آنذاك للسلطنة الأيوبية [١] .

وإن يكن الملك الناصر يوسف قد ترك له المماليك مجـالاً واسعاً ، واستطاع أن يضم إليه ما يقرب من نصف المملكة الأيوبية القديمة ، كدمشق وحماه وحلب وحمص والكرك وبعض الأراضي المقدسة في أورشليم ، فإنه لم يتردد في ارسال الوفود إلى هولاكو ، بعد سقوط بغداد ، طالباً منه الاعتراف بتبعيته له ، شرط أن يعيد إليه ملك أسلافه ، لكنه لم يستطع أن يركن كل الركون للفاتح المغولي المنفذ لوصية جنكيز خان ، فعاد يطلب معونة المماليك في مصر [٢] .

وفي ظل هذه الأجواء دخل المغول بلاد الشام ، فتساقطت المـدن الأيوبية بيدهم الواحدة تلو الأخرى .

وعلى الرغم من هزائمه المتتالية على يد المماليك ، ظل الملك الناصر يوسف الأيوبي متمتعاً بمركزه في الأنحاء الشامية ، نتيجة للأحقاد بين مسلمي الشام ومسلمي مصر ، أضف إلى ذلك عدم استقرار الحال في القاهرة.، مما شجع الصليبيين على التفكير في انتهاز الفرص بحيث أصبح بإمكانهم القيام بمناورات حيال كل من الطرفين [٣] ؛ فما أن وصل الملك لويس التاسع إلى عكا قادماً من الأسر في مصر ، إثر حملته الفاشلة على دمياط [٤] ، حتى أخذ

---

(١) Grousset, Histoire,III, p. 579.

(٢) Ibid., P. 589.

(٣) Ibid., P. 501.

(٤) حصلت هذه الحملة في ٤ المحرم سنة ٦٤٨/٨ نيسان ١٢٥٠ ، وأسفرت عن هزيمة ملك فرنسا واعتقاله ، ولم يفرج عنه إلاّ بعد مفاوضات مضنية آلت إلى معاهدة بينه وبين المماليك تعهد بموجبها بالانسحاب من دمياط ودفع جزية لافتداء الأسرى وتعويضات مالية عن الأضرار التي ألحقتها حملته في دمياط فضلاً عن اطلاق سراح الأسرى المسلمين . =

يعمل على هذا الأساس ، فقد كان يعلم حق العلم أن دولة المماليك الفتية واضطراب الحالة في أنحائها ، كانت ولا شك تخاف عودة الأيوبيين إلى مناوأتها ؛ فالملك الناصر يوسف لا يزال يفكر بأن القواد في مصر سيعلونه عليهم [١] ، وإلمام لويس التاسع بهذه الحالة ، شجعه على رفع صوته عالياً في البلاط المصري إبان أسره [٢] . وركن المماليك بعض الشيء حتى أن تبادل الأسرى من مسلمين وفرنجة كان يجري بسهولة متناهية ، بيد أن هذا الموقف الذي وقفه الصليبيون من المماليك لم يغرهم في شيء ، فإن مجاورتهم لهؤلاء كانت تشكل الخطر الأكبر عليهم ؛ فالمماليك تجاهلوا سياسة التساهل والتسامح التي اتبعها صلاح الدين ، حتى أن البرّ بالكلام والوعود بدا مستحيلاً لديهم [٣] ، ثم أن النضال ضد الفرنجة لم يكن قد توقف يوماً منذ احتلالهم الأراضي المقدسة على الرغم من أنه كان قد مر في مراحل سلمية نسبياً ؛ فقد رأى المسلمون سواء في بلاد الشام أم في الديار المصرية أنه من أولى واجباتهم تحرير البلاد من الصليبيين ، لكن إبطاءهم في هذا الأمر في أواخر الدولة الأيوبية كان بمثابة تهيء للوثوب بقوة وصلابة في أيام المماليك البحرية ، حيث لوحق الصليبيون باستمرار ، منذ أيام الظاهر بيبرس حتى أيام الأشرف خليل .

إن المماليك الذين هالهم اكتساح هولاكو لبلاد الشام ، كانوا يعتبرون

= ابن العبري : ٢٥٩ ؛ أبو الفدا ٣ : ١٨١ ؛ ابن خلدون ، العبر ٣ : ٣٧٣ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ٣٦٣ ؛ جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام : ١٥٥ - ١٥٦ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر - هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور - الملحق الثالث: ٣٠٩ - ٣١٠ ؛ Grousset, Histoire, III, p. 500

(١) المفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد : ٣٧٤ .

(٢) الكناني ، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي : ٣٦٤ ؛ Grousset, Histoire, III p. 500.

(٣) Grousset, Ibid., p. 500.

أن القتال ضد المغول ضرورة حتمية يتوقف عليها مصير دولتهم الناشئة في مصر ؛ فقد أيقنوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، أنهم الحصن الأوحد والأمنع للإسلام ، فلم يعد بإمكانهم السكوت عما يجري ، خاصة وأنهم قد سبق وأمروا بالمناداة : « البلاد للخليفة المعتصم بالله العباسي ، وأن الملك المعز عزالدين أيبك نائبه بها »[1].وها هو هولاكو يدعو الخليفة للإعتراف ، كسابقيه البويهيين والسلاجقة ، بسلطة المغول[2] ، مذكراً إياه بأعمال جنكيز خان في العالم ، ناصحاً بالعدول عن المقاومة . لكن الخليفة أبى أن يذعن لشروط كهذه ، فبدأ الخلاف ، إثر قتل الوفد المغولي[3] ، فاجتيحت بغداد ، وبدت أبواب بلاد الشام مفتوحة دون أية مقاومة تذكر . وصمم هولاكو في الوقت نفسه على إخضاع مصر، حيث يمكنه بعد ذلك التطلع إلى مكة والمدينة الأمر الذي لا يمكن أن يسكت عنه أي مسلم ، لذا سيعرف القتال بين الطرفين حدة وعنفاً لم يعرفهما من قبل ؛ فبعد أن قامت فتوحات المغول في بلاد الشام ، واجتاحت جحافلهم أنحاء المملكة الأيوبية المتداعية ، بدا من المستحيل أن يقف المماليك مكتوفي الأيدي ، خاصة وأن إخضاع سورية جعل أبواب الديار المصرية مفتوحة أمام الغزاة ، فانتظر قطز الفرصة المناسبة ، أي رجوع هولاكو إلى إيران حتى يضرب ضربته الحاسمة في عين جالوت ، لا سيما بعد أن حضر رسول إلى السلطان قطز حاملاً معه كتاباً من هولاكو ، وكان مضمونه تهكماً على المصريين ودعوة ساخرة للإستسلام[4] .

وفي ظل هذه الأجواء المضطربة التي سادت المنطقة برمتها ، كان لا بد من دور يلعبه أحد الأطراف لقلب موازين القوى وإحداث الإنعطاف التاريخي المطلوب ، فوجد مماليك مصر في أنفسهم القدرة على تنفيذ المهمة ،

---

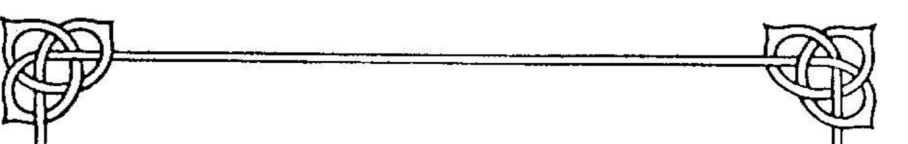
(١) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٣٧٠ .

(٢) Grousset, Histoire , III, P. 569.

(٣) Ibid., P. 569 - 570.

(٤) راجع نص كتاب هولاكو إلى السلطان قطز في المقريزي، السلوك ١/٢ : ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

فكانت الفتوحات العظمى على يد سلاطين المماليك الأربعة : قطز ، بيبرس ، قلاون وابنه الأشرف خليل ، تلك الفتوحات التي استهلها المماليك بتوجيه ضربتهم الموجعة للمغول ، ومن ثمَّ تفرغهم لتحرير البلاد الشامية من الوجود الصليبي وإلحاقها بدولتهم الفتية القائمة في مصر .



الفصل الثالث

الفتوحات العظمى

- أهمية البلاد الشامية بالنسبة لأمن مصر .
- السمة العامة لسياسة المماليك في صراعهم مع المغول والصليبيين :
  - إقامة الأحلاف واستفراد الخصوم .
  - إحياء الخلافة وإظهار أنفسهم حماة لها .
- معركة عين جالوت واندحار المغول وطردهم من سوريا الداخلية .
- المواجهة المباشرة مع الصليبيين وتحرير مدن الساحل اللبناني :
  - تحرير طرابلس وملحقاتها (أنطاكية،حصن الأكراد ، حصن عكار ، أنفه والبترون ، جبيل) .
  - تحرير مدن الساحل اللبناني التابعة لمملكة القدس (صور ، صيدا ، قلعة شقيف أرنون ، بيروت) .

١

لم تكن بلاد الشام في يوم من الأيام غير ملتقى الفاتحين القادمين سواء من الشرق أم من الغرب ، وبدت في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي الطريق الأوحد للمغول الرامين إلى بسط أمبراطوريتهم نحو الغرب التزاماً منهم بوصية جنكيزخان ، ثم إن وضعها الجغرافي ووقوعها شمالي مصر جعلاها بمثابة الباب الذي إذا وُلج ، أدى إلى الديار المصرية المشهورة آنذاك بثروتها التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد ممكن [١] ، وأن المماليك كانوا يريدونها مرتبطة بهم أوثق ارتباط ، فإذا ما توفر لهم السيطرة عليها أمكنهم تثبيت سيطرتهم المتقلقلة على مصر . ولم يهمهم أنحاء بلاد الشام الداخلية وحدها بل الشريط الساحلي أيضاً والذي أبرز ثغوره : عكا ، صور ، صيدا، بيروت، جبيل، البترون، طرابلس وطرطوس. . . لذلك حين بدأت الحملة على بلاد الشام ، كان من الطبيعي أن تكون شاملة تتناول الأنحاء الداخلية والساحلية على السواء ، إذ حين يتم الاستيلاء عليها تؤمن

---

(١) موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر : ٤٤ .

حماية مصر من كل خطر ، لا سيما بعد سقوط بغداد وتوالي الهجمات المغولية حتى بعد معركة عين جالوت . أما الصليبيون الذين كانوا يرون في الشاطىء آخر المحطات التي تؤمن لهم الغزو من جديد ، يصبح من السهل تجنب خطرهم بعد خروج السواحل من أيديهم .

وآن للمماليك أن يتحركوا باتجاه الأنحاء الشامية ، مجنبين مصر أن تكون ساحة وغى ، مستفيدين من الخلاف الناشب بين المغول وبعض الصليبيين ، فتقدموا في الشمال ، وكان تقدمهم بمثابة ابتداء عهد المماليك في بلاد الشام بعد معركة عين جالوت (1) .

٢

واعتمد المماليك إلى جانب إقدامهم وبطولاتهم التي أثبتوها في ساحات القتال (2) ، سلاحاً آخر لا يقل أهمية عن السلاح العسكري ، تمثل بإقامتهم للأحلاف وعقدهم للإتفاقيات والهدن لتدعيم جبهتهم العسكرية من جهة وإضعاف الخصوم من جهة أخرى ، فها هو المظفر قطز يعقد مع بارونات عكا إتفاقية تقضي بالتزامهم الحياد في صراعه مع المغول والسماح لجيشه باجتياز الأراضي الصليبية وهو في طريقه إلى عين جالوت (3) .

وقد أدرك الظاهر بيبرس أن دولته تواجه حلفاً قوياً يربط اثنين من ألدّ أعدائه هما الصليبيين والمغول ، هدفه اجتياح البلدان العربية في الشرق

---

(1) حتي ، لبنان في التاريخ : ٣٧٣ ؛ رنسيمان ٣: ٥٣٤ .

(2) وفي هذا الإطار يقول الأستاذ كاهين : « إن طبيعة المماليك كانت تفرض عليهم أن يعيشوا بواسطة الحرب وفي سبيلها » .

Cahen, Orient, p. 200.

(3) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٣٠ ؛ رنسيمان ٣ : ٥٣٤ ؛ Grousset, Epopée, p. 373

الأدنى ، واتجهت خطته إلى القضاء على كل من هذين الخصمين على حدة ، فخط لنفسه سياسة خارجية تقوم على إحاطة حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية ، ليضمن تقوية جبهته من ناحية واكتساب أعوان وحلفاء من ناحية أخرى ؛ من ذلك أن بيبرس سعى إلى محالفة الأمبراطورية البيزنطية ، وهي العدوة التقليدية للصليبيين بالشام ، فقد استطاع بسفارته وهداياه أن يحصل على إذن من الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) بمرور سفينتين محملتين بالمماليك عبر مضيق البوسفور إلى البحر الأسود ذهاباً وإياباً مرة في السنة [1] . كما حرص على الاحتفاظ بسياسة الود والتحالف بين حكام جزيرة صقلية من جهة وسلاطين مصر من جهة أخرى ؛ فقد قويت الرابطة بين بيبرس وهذه الجزيرة في عهد شارل الأنجوي (Charles d'Anjou) ، وكانت له صلات حسنة مع سلطان السلاجقة الروم عزالدين كيكاوس بن كيخسرو الذي استنجد ببيبرس سنة ٦٦٠/ ١٢٦١ لمساعدته ضد أخيه ركن الدين قلج ارسلان ، وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى ، وبالفعل أرسل بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعداداً لتأييد السلطان عزالدين ضد أخيه وضد المغول [2] . وحالف الظاهر بيبرس أيضاً عاهل الدولة الإسلامية المغولية، خان القبيلة الذهبية (Horde d'or) [3] أو مغول القوزاق ، بركة خان ، وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيز خان ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى شمالي البحر الأسود غرباً ، وتعرف ببلاد القوزاق ، وعاصمتها مدينة صراي (Sarai) في شمالي غرب بحر قزوين ، وتبادل معه البعوث والهدايا (٦٥٩ - ٦٦١/ ١٢٦١ - ١٢٦٣) ، كما تزوج ابنته [4] ، وأمر بالدعاء

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه : ١٢٥ - ١٢٧ ؛ ابن أبي الفضائل ، النهج السديد : ٤٥٥ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، نفسه : ١٣٩ - ١٤٠ ؛ Cahen, Orient, p. 199

(٤) وأنجبت له خليفته الملك السعيد ناصرالدين بركة .

له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة [1] ، ولا شك أن هذا الحلف كان موجهاً بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك المتمثل في دولة خانات فارس التي كان يحكمها هولاكو وأولاده ، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز. ويذكر «المقريزي» أن بيبرس « كتب إلى الملك بركة خان يغريه بقتال هولاكو ، ويرغبه في ذلك » [2] .

وكان بيبرس صريحاً غير ملتوٍ في حروبه مع الصليبيين ، مما جعل أعداؤه يعرفون دائماً بأغراضه واتجاهاته ؛ فكان يلجأ أحياناً إلى توقيع المعاهدات وعقد الهدنات معهم إذا أحس بحاجة إلى ذلك ، وكانت مدة تلك المعاهدات ، كما جرى التقليد ، عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، ومن ذلك الهدنة مع صاحب طرابلس بوهيمند السادس سنة ١٢٧١/٦٦٩ [3] ، والهدنة مع عكا في ٢٢ رمضان سنة ٢٢/٦٧٠ نيسان ١٢٧٢ [4] ، لكنه كان لا يجد غضاضة في أي وقت من خرق تلك المعاهدات ، ونقض تلك الهدنات قبل انقضاء أجلها [5] ، ويروي «Grousset» أن بيبرس وهو على صفد نجح في إيجاد الشقاق بين الصفوف المدافعة عن المدينة ، فعمل على استمالة المسيحيين من أهل الشام واعداً إياهم بالأمان دون الفرنجة، فكان هذا الأمر عاملاً هاماً سهّل احتلال صفد [6] .

---

(١) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٤٥٤ ـ ٤٦٢ .

(٢) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٦٥ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٥٢ ؛ الذهبي ، العبر في خبر من عبر ٥ : ٢٩٠؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ٨ : ١٥٩ ؛ ابن أبي الفضائل، النهج : ٥٣٤ ـ ٥٣٧ ؛ المقريزي ٢/٢ : ٥٩٢ ـ ٥٩٣ .

(٤) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر : ٣٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٥٧ .

(٥) ابن أبي الفضائل ، النهج: ٥٣٣ ـ ٥٣٤؛ Grousset, Epopée , p. 375

(٦) Grousset, Histoire,III, p. 628.

ولم يحد السلطان المنصور قلاون عن السياسة الخارجية التي اتبعها سلفه ؛ فقد كان يؤمن بضرورة منع أي تقارب صليبي - جنوي أو صليبي - مغولي ، كي تتاح له فرصة تدمير كل منهم على حدة ، فحرص على إنشاء علاقات دبلوماسية مع جنوا ، وعقد معها معاهدة تجارية مُنح بمقتضاها للجنويين حقوقاً وامتيازات تجارية ضخمة مقابل إحداثهم للقلائل في صفوف اللاتين وغيرهم من الإيطاليين في الأراضي المقدسة ، فضلاً عن تعهدهم بالتزام الحياد في الصراع الصليبي - المملوكي المرتقب إبّان حرب تحرير بقية مدن الشام من أيدي الافرنج[١]. وأقام حلفاً دفاعياً بينه وبين الملكين الإيطاليين « الفونس دي كاستيل » و « جاك دو سيسل » (Alphonse de Gastille et Jacques de Sicile) ، ووطد علاقاته الدبلوماسية مع أمبراطور بيزنطية ، ومع الأمبراطور «رودلف دوهابسبورغ» Rodolphe de Habsbourg، ومع صاحب سيلان [٢] ،كما عزز العلاقات التي أقامها بيبرس مع زعماء مغول القوزاق الذين تحولوا إلى الإسلام[٣] .

ولتقوية جبهته ضد المغول ، قبيل وقعة حمص ، لجأ قلاون إلى إيقاع الخلاف بين الصليبيين والمغول ، فعقد عام ٦٨٠/ أوائل أيار ١٢٨١ صلحاً لمدة عشر سنوات مع الداوية والأستبارية فضلاً عن بوهيمند السابع أمير طرابلس [٤] . لكنه بعد انتصاره على المغول ، وبعد أربع سنوات من توقيعه الصلح مع الصليبيين ، جدّ في قتال الأستبارية ، واستولى على حصنهم المنيع في المرقب سنة ٦٨٦/ ١٢٨٧ . ولكي يتفرغ لقتال خصمه القديم سنقر

---

(١) الكناني ، العلاقات : ٢٦٤ - ٢٦٥؛ Jacopo D'Oria, Annali di jacopo D'Oria vol. XIII, P. 173 175; Cahen, Orient, P. 203

(٢) المقريزي ١/ ٣ : ٧١٣ .

(٣) Hassanien Rabie, art «Ḳalāwūn», EI², IV, p. 505 a - 507 a

(٤) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور: ٢١٠ - ٢١٥؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك ٧: ٢٠٦.

الأشقر وافق السلطان قلاون على هدنة مع «مرغريت» (Marguerite) أميرة صور [١] ، كما أنه لم يتورع عن مساندة صاحب جبيل « بارتلمي أمبرياتشو» (Barthélémy Embriaco) في الصراع الدائر حول زعامة طرابلس ، إثر وفاة بوهيمند السابع، بعد أن وعده «بارتلمي»، إذا ما نجح، بأن يقتسم معه طرابلس [٢].

وهكذا يتضح أن المعاهدات التي أُبرمت والسفارات التي تُبودلت بين سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقاً وغرباً ، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين ، كما أن السياسة الحكيمة التي اعتمدها سلاطين المماليك في علاقاتهم الخارجية قد حققت لهم قدراً كبيراً من المكانة الدولية ، وساعدتهم بالتالي على بسط هيمنتهم كاملة على الأقطار الشامية .

ويمثل إحياء الخلافة الإسلامية في القاهرة الركن الثاني للسياسة النضالية التي اعتمدها المماليك في حروبهم ضد أعداء الإسلام .

فبعد أن دك المغول مركز الخلافة الإسلامية في بغداد ، أصبح هاجس إحياء الخلافة في القاهرة حلماً يراود سلاطين المماليك منذ أيام المظفر قطز ، لأن المماليك قد وجدوا في تحقيق هذا الأمر سنداً قوياً يساعدهم على تثبيت دعائم حكمهم في مصر من جهة ، وإظهار تفوقهم على أندادهم في سائر أنحاء العالم الإسلامي من جهة أخرى . ويعود لبيبرس الفضل الأكبر في هذا المجال ، عندما نجح عام ٦٥٩/ ١٢٦١ في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فأصبحت مصر مقر الخلافة ومركز الرئاسة العامة على المسلمين ، فأفادت السلطنة المملوكية من ذلك فائدتين كبيرتين هما :

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف : ١٠٣ ـ ١١٠ .
(٢) ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

- أن سلاطين المماليك من بيبرس فصاعداً ظهروا أمام العالم الإسلامي حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء .
- أن السلطنة المملوكية كسبت شرعية ما كانت لتكسبها من أي مصدر آخر [1] .

وقد اضطر بيبرس إلى التعجيل بإحياء الخلافة بمصر ليقوّي عرشه ضد أحقاد نظرائه سابقاً من المماليك ، وكذلك خوفاً من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية ، زد على ذلك أن الأيوبيين في مصر والشام ما زالوا يأملون في إعادة سلطتهم الضائعة في مصر [2] ، لذلك لا عجب أن يسارع الظاهر بيبرس إلى إحاطة عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه شر أعدائه من الصليبيين والتتار ، وشر الطامعين في مُلك مصر من أمراء الشام ، كما أنه كان يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية بمصر ، أن تنظر إليه الشعوب الإسلامية الأخرى نظرة حامي الإسلام ، كذلك رأى أن وجود الخليفة العباسي في القاهرة ، وهو مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله ، يجعل سلطان المماليك في مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى [3]، لذلك لما سمع بيبرس أن أحد العباسيين أخطأته مذبحة التتار جد في استحضاره من سورية إلى مصر ، وأعلنه خليفة في القاهرة باسم «المستنصر بالله» [4]، وبعد ذلك قلد الخليفة السلطات « للملك الظاهر البلاد الإسلامية وما سيفتحه من أيدي الكفار » [5]. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن مغول القوزاق

(١) علي إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية : ١٨٩ - ١٩٠؛ Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, p. 713.

(٢) موير Muir ، تاريخ دولة المماليك في مصر : ٤٢ .

(٣) Lane - poole, Egypt in the Middle Ages, p. 264 - 265.

(٤) ابن عبدالظاهر ، الروض : ١٠٠ ؛ المقريزي ، السلوك ١ /٢ : ٤٥١ .

(٥) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه : ١٠٠ ، ١٠١ - ١١٠ ؛ المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠١ ؛ Cahen, Orient, p. 204; Prawer, Histoire du Royaume Latin. III, p. 425.

المسلمين قد آثروا التعاون مع المماليك ، أخوانهم في الدين ، ضد أنسبائهم مغول فارس بزعامة هولاكو المسيحي النسطوري [1] .

وهكذا استطاع المماليك ، عبر فوزهم بلقب حماة الإسلام والخلافة الإسلامية ، أن يجنّدوا كل القوى المسلمة في بلاد الشام وخارجها للجهاد ضد أعداء الدين ، فكان لذلك أهمية ملحوظة في تحقيق النصر لهم في صراعهم ضد خصومهم الأشداء التتار والافرنج ، وكان الاحتكاك الأول بالتتار، وكانت المعركة الفاصلة في عين جالوت.

٣

رأينا فيما سبق أن المغول قد استطاعوا في مدة قصيرة أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الوقت ، فالتهموا دوله الواحدة بعد الأخرى ، وتوغلوا في ممالكه يفتكون ويهتكون ويسفكون الدماء ويحطمون العروش ، فلقد قضوا على الدولة الخوارزمية ، وحطموا قلاع الاسماعيلية ، وأسقطوا بغداد ، وقتلوا الخليفة المعتصم آخر الخلفاء العباسيين ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان ، واستولوا على الشام بأسره ، ولم يبق أمامهم إلا مصر آخر معقل للإسلام في الشرق .

وبعد أن استتب لهم الأمر في المناطق التي أخضعوها ، اتجهت أنظارهم نحو مصر ، فكثرت رسلهم إلى الديار المصرية للضغط على سلطان المماليك كي يذعن لسلطتهم . وكان يدخل في حساب المماليك أن القتال ضد المغول أمر لا بد منه لتحقيق هدفين في آن معاً : أولهما دعم سلطتهم في القاهرة عبر تجميع كل القوى المسلمة هناك تحت رايتهم للقتال ضد أعداء الدين ، وقد نودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج للجهاد ، وثانيهما العمل على دحر

---

(١) ويؤكد على ذلك الدويهي الذي أشار إلى دور هولاكو في نشر المسيحية في بلاد الشام بقوله : « فإن هولاكو كان نصرانياً ، وفي مجيئه انتشر دين النصرانية ببلاد الشام ». الدويهي ، تاريخ الأزمنة : ١٣١٠ .

المغول كمقدمة ضرورية لتحقيق حلمهم بضم سورية إلى مصر ، لذلك لم يكن مفاجئاً أن يأمر السلطان قطز بقتل رسل هولاكو إليه للتدليل على رفضه طلب هذا الأخير بالخضوع والاذعان [١] .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للإنفاق عليها بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة [٢] . وكانت بلاد الشام إذ ذاك محاصرة بين خطين معاديين ، الشاطىء بحوزة الصليبيين والداخل بيد المغول ، وصادف في ذلك الوقت أن توفي خان المغول «مونغا» (Mongha) ، ونشبت الحرب الأهلية في منغوليا ، فكان لزاماً على هولاكو أن ينقل القسم الأكبر من جيشه إلى الشرق [٣]، وما تبقى مع كتبغا من عساكر كانت تقل في العدد عن القوات التي أخذ قطز يحشدها ، والتي ضمت إلى جانب المصريين من القوات الخوارزمية وعساكر الكرك الأيوبيين [٤]، وتشير المصادر الأرمنية إلى أن هولاكو قد ترك في بلاد الشام ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف مقاتل [٥] .

وعبر الجيش المصري الحدود في رمضان عام ٦٥٨/ آب ١٢٦٠ ، وتولى بيبرس البندقداري قيادة المقدمة ، فاحتل المماليك غزة بعد أن قضوا

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٤٢٩ ؛ رنسيمان ٣ : ٥٣٣ .

(٢) أوضح ابن أياس (بدائع الزهور ١ : ٩٦ - ٩٧) هذه الضرائب ، فقال : إن السلطان قطز « أخذ في أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من إجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة ستمائة ألف دينار » .
والمقصود بالترك الأهلية عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل . راجع : المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٤٣٧ ، حاشية ٥ .

(٣) Grousset, Empire, p. 437.

(٤) رنسيمان ٣ : ٥٣٣ - ٥٣٤ .

(٥) Hayton, La flor..., Documents Arméniens II, p. 173.

على حاميتها المغولية (١) ، وكانت خطة قطز تقضي بالسير بحذاء الساحل الفلسطيني ثم المضي إلى داخل البلاد ، لذا كان عليه أن يتصل بأسياد عكا طالباً الإذن بالسماح لقواته اجتياز أراضي الافرنج، والحصول على المؤن اللازمة للجيش أثناء مسيره ، إذا لم يبذل له الافرنج مساعدة حربية فعلية .

فهل استجاب افرنج عكا لهذا الطلب ؟

في الواقع فقد عقد بارونات عكا اجتماعاً طارئاً لمناقشة طلب السلطان ، فأبدى الجميع تعاطفهم مع المماليك لاعتبارات عدة :

١ - حقد بارونات عكا على المغول لما أقدموا عليه منذ زمن غير بعيد من نهب وتدمير لمدينة صيدا .

٢ - عدم ثقتهم بالمغول لما حفل سجلهم بالمذابح الجماعية (٢) .

٣ - عدم تقديرهم لأبعاد انتصار المماليك على المغول .

وقد أظهر البارونات في أول الأمر ميلهم لتقديم العون العسكري للمماليك ، لكن كياسة مقدم فرسان التوتون وحجته الدامغة في إظهار مخاطر التمادي في الوثوق بالمسلمين ، لا سيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول ، قللت من حرارة التعاطف مع المماليك ، وقرروا رفض التحالف العسكري مع السلطان ، والاكتفاء بالسماح له باجتياز أراضيهم ، والوعد بتقديم التسهيلات اللازمة لتموين جيشه «فشكرهم وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل ، يريد أذى عسكر المسلمين ، رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر» (٣) .

---

(١) Rachîd ed - Dîn, trad. Quatremère, p. 347; Grousset, Empire, p. 438.

(٢) ويؤكد ذلك المستشرق كاهين حيث يقول عن المغول :
«Ils ont été les plus grands massacreurs de l'histoire médiévale». Cahen, Orient, p. 198.

(٣) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٣٠ ؛ Prawer, Histoire, III, p. 433; Grousset, Empire, p. 438.

وعلى هذا الأساس قاد السلطان قطز جيشه على الطريق الساحلي خلال شهر آب ، وعسكر في الحدائق الواقعة خارج عكا عدة أيام ، وأخذ يستعد للمعركة الفاصلة . وبينما كان المظفر قطز في عكا ، علم أن كتبغا قد عبر نهر الأردن ، وأنه نفذ إلى الجليل الشرقي ، فبادر على الفور بتوجيه جيشه إلى الجنوب الشرقي ، مجتازاً الناصرة ، فوصل في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨/ ٢ أيلول ١٢٦٠ إلى عين جالوت ، وهي قرية واقعة بين بيسان ونابلس من جند فلسطين[١] . وفي تلك الأثناء وصل كتبغا ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة أظهر فيها المماليك شجاعة نادرة ، حتى أن قطز حمل بنفسه على الأعداء بعد أن صرخ بأعلى صوته « وا إسلاماه »[٢] ، وظل يقاتل حتى تم القضاء على المغول قضاء تاماً ، « وولوا الأدبار لا يلوون على شيء »[٣] . أما كتبغا فقد أبى أن يبقى على قيد الحياة بعد هزيمته ، إذ كاد أن يكون بمفرده حينما وقع في الأسر ، وسبق إلى السلطان الذي أمر بقطع رأسه[٤] .

وكان نصر عين جالوت إشارة لخلاص الشام من أيدي المغول ، إذ أسرع ولاة المغول بالهرب قبل أن يقعوا في أيدي الشاميين الذين هبوا للإنتقام[٥] ، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها ، حيث خضعت له سائر البلاد الشامية « من الفرات إلى حد مصر »[٦] ، وقامت في مدينة دمشق ، لما وصلتها أخبار عين جالوت مذبحة كبرى في التتار ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، وفي مقدمتهم النصارى الذين دفعوا الثمن غالياً بسبب تعاطفهم السابق مع المغول خلال

---

(١) Lewis, art, «'Ayn Djālūt», EI², p. 810a - 811a.

(٢) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٣١ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٧٩ .

(٤) المقريزي ١/٢ : ٤٣٢ ؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ٣: ٥٣٧ ؛ Grousset, Empire, p. 439.

(٥) المقريزي ١/٢ : ٤٣٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٤٣١ .

فترة الاحتلال المغولي للمدينة [١] . ولم يستتب النظام والأمن في هذه المدينة إلاّ بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة في ٢٧ رمضان سنة ٦٥٨/ أيلول سنة ١٢٦٠ [٢] . وهكذا دانت سورية الداخلية للحكم المملوكي ، وانحسر بالتالي النفوذ المغولي عنها ، وكانت عين جالوت أبعد نقطة للتوسع المغولي في سورية وفلسطين باتجاه مصر [٣] .

تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ ، فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له ، فلو انتصر المغول في تلك المعركة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوه بالعراق والشام ، ولما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب ، ولو انتصر كتبغا المسيحي لازداد عطف المغول على المسيحيين ، « ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة ، لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العهد السابق على الإسلام » [٤] .

وقد جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى خلال القرنين التاليين إلى أن قامت الأمبراطورية العثمانية . ومن النتائج البعيدة لهذه المعركة أنها كانت عاملاً هاماً من العوامل التي أدت إلى اعتناق مغول غرب آسيا للإسلام ، بزوال الإمارات الصليبية قبل ختام القرن الثالث عشر الميلادي لأن المسلمين ، حسبما تنبأ مقدم فرسان التوتون ، أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين [٥] .

---

(١) ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢٢١ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٢٥ ، ٤٣٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٨١ ؛ العيني ، عقد الجمان ، (Recueil) ج ٢ ، ق ١ : ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) المقريزي ١/٢ : ٤٣٣ ؛ ابن كثير ١٣ : ٢٢١ .

(٣) أبو شامة ، الذيل على الروضتين : ٢٠٨ ؛ Prawer, Histoire du Rayaume Latin, III, p. 435

(٤) رنسيمان ، تاريخ ٣ : ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٥) المرجع نفسه : ٥٣٨ ؛ عاشور ، الحركة ٢ : ١١٣٨ .

وغداة عين جالوت بدا سلطان المماليك سيد سورية الإسلامية حتى الفرات بلا منازع ، وعلّق مصير من تبقى من الأمراء الأيوبيين في يديه ، « وأخذ في أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدي أولاد بني أيوب ، وكان غالبها في أيديهم ، فمهد البلاد الشامية والحلبية ، وولى من يختاره من عصبته »[1] ، كما أنه عفى عن بعض الأيوبيين كالأشرف موسى ملك حمص وحليف المغول ، وأعاده إلى حكمه ، وجازى من انحاز إليه كالمنصور ملك حماه ، ولم يتوان عن قتل من صارحوه العداء كالملك السعيد صاحب بانياس والصبيبة[2] .

وثمة ملاحظة أخيرة نختتم بها كلامنا عن موقعة عين جالوت هي أنه ، على الرغم الشجاعة التي أبداها المماليك في المعركة ، فلو تحقق التحالف الصليبي ـ المغولي ، ولو لم يضطر هولاكو إلى سحب جيوشه لمواجهة الأوضاع المضطربة في بلاده ، لما استطاعت دولة المماليك الفتية لِمَا كانت تعانيه من انقسامات ومتاعب داخلية وخارجية ، من تحقيق هذا الانتصار بسهولة .

٤

وبعد أن نفذ المماليك بنجاح خطوتهم العسكرية الأولى ، والتي تجلت بطرد المغول من البلاد الشامية ، كان عليهم والحالة تلك أن يخطوا الخطوة التالية المتمثلة بمواجهة الصليبيين وتحرير البلاد عامة ، والساحل اللبناني خاصة ، من سيطرتهم .

وقبل أن نستهل البحث نرى من الضرورة أن نشير إلى أمرين أساسيين

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور : ٩٧ .

(٢) أبو الفدا ٣ : ٢٠٥ ؛ ابن كثير ١٣ : ٢٢١ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٣٣ ؛ كرد علي ، خطط ٢ : ١٠٨ . والصبيبة ، قلعة من جبل حرمون على منحدره الشرقي ، شمالي شرقي بانياس ، وتسمى أيضاً قلعة بانياس .
ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر : ٣٢٧ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان : ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

أولهما أن أسلوب القتال الذي اتبعه المماليك ضد المغول يختلف اختلافاً كلياً عن ذاك الذي سيتبعونه في حربهم مع الصليبيين ، فالحرب مع جحافل المغول كانت حرب مواجهة مباشرة ، حيث تقابل الجيشان في معارك ضارية في مكان منبسط (وقعة عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨/ ٣ أيلول سنة ١٢٦٠ ، ووقعة حمص في ١٤ رجب سنة ٦٨٠/ ١٢٨٢) ؛ ففي حديثه عن وقعة حمص يشير « ابن أبي الفضائل » إلى أن السلطان قلاوون قد جمع الأمراء قبل المعركة ، واستشارهم لتحديد الملتقى مع المغول ، « فاتفقوا أن يكون الملتقى في مرج حمص »[١] . بينما كانت مواجهة الصليبيين تتطلب أسلوباً آخر تجلى بالحصار[٢] ، ذلك لأن الصليبيين قد أحاطوا مدنهم الهامة بقلاع وحصون منيعة ، وأوكلوا أمر حمايتها لفرسان منظمتي الأسبتار والداوية[٣] ، فكان على المماليك أن يجدّوا في حصار الحصون والقلاع واسقاطها قبل الوصول إلى أسوار المدن الرئيسة ، لذا كانت المواجهة مع الفرنج تفترض جهداً أكبر وعزيمة أشد تنطح لهما المماليك بمنتهى الجدارة والمقدرة .

وثانيهما أن الساحل اللبناني كان تابعاً ، في قسمه الشمالي الممتد من منطقة طرابلس حتى شمالي بيروت (عكار ، طرابلس ، أنفه ، البترون وجبيل) ، لإمارة طرابلس ، بينما كان قسمه الجنوبي ، من بيروت إلى صور . مروراً بصيدا ، تابعاً لمملكة بيت المقدس ، ولايفاء البحث حقه في العرض والتحليل لا بد لنا أن نتطرق إلى إمارة طرابلس وكيفية سقوطها بيد المماليك ، فنكون بذلك قد غطينا عملية تحرير المدن الساحلية الشمالية ، ومن ثمّ نتطرق للحديث عن مواجهة الصليبيين في الساحل الجنوبي لا سيما صليبيي عكا التي كان سقوطها بمثابة السبب المباشر لسقوط المدن الساحلية للبنان الجنوبي (بيروت ، صيدا ، وصور) .

---

(١) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٤٨٨ .

(٢) Ayalon, art. «Ḥiṣār», EI², IV, p. 485 b - 492 b.

(٣) وتعود التحصينات إلى أيام الخطر المغولي .

راجع : رنسيمان ، تاريخ ٢ : ٥٠٠ ـ ٥٠٢ ; Prawer, opt. cit., III, p. 429;

١ - تحرير طرابلس وملحقاتها :

ورأى السلطان الظاهر بيبرس ، الذي خلف المظفر قطز ، أن يوجه أولى نشاطاته العسكرية ضد صليبيي الشمال وخاصة ضد خصمه اللدود بوهيمند السادس صاحب أنطاكية وطرابلس الذي كان قد اعتمد في حق المسلمين من أهالي حلب ، عند استيلاء التتار على البلاد ، كل قبيح من القتل والأسر والسبي (١) .

وعلى هذا الأساس ، سدد بيبرس أولى ضرباته إلى إمارة أنطاكية ؛ ففي سنة ٦٦٠/ ١٢٦٢ أرسل الأمير شمس الدين سنقر الرومي للإغارة على أنطاكية ، وقد نجح الأمير المذكور في مهمته وأحرق ميناءها ، وعاد وبصحبته ما يزيد على ثلثماية أسير (٢) . وفي عام ٦٦٤/ ١٢٦٦ بعث عسكراً مقدّمه الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي ، ثم عسكراً آخر بقيادة الأمير سيف الدين قلاون الألفي للإغارة على بلاد الساحل ، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد ، وسبوا وغنموا ما لا يحصى (٣) ، كما استولوا على قلاع حلبا والقليعات وعرقا (٤)، وفي ذلك يقول «ابن عبد الظاهر» ما يلي (٥): « . . . وكان بقلعة حلبا جماعة ، فهربوا وأخلوها ، ودخل العسكر إليها ، وكسبوا منها شيئاً كثيراً من نحاس وصناديق وسكر وغيره ، وهذه القلعة تشبه قلعة عجلون حصانة ، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم ، فقتلوهم ، وأخذوا نساءهم ، ولما شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى في حلبا نجوا بأنفسهم.

---

(١) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٠٩ ؛ Cahen, La Syrie, p. 715

(٢) أبو الفدا ٣ : ٢١٤ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٤٧٢ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٣٨ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ٨ : ١١٦ .

(٤) أبو الفدا ٤ : ٣ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٥٤٥ ؛ الدويهي ، تاريخ الأزمنة : ١٣٥ ؛ Cahen, La Syrie, p. 717

(٥) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٢٥٢ .

«وهذه قلعة عرقا شبه قلعة حمص ، وبها من الغلات شيء كثير متحصل بلدها في السنة من الهلالي خمسة عشر ألف دينار ، والأقصاب عشرون ألف دينار ، والمزروعات شيء كثير ، وما زالت العساكر حتى أخربت القلعتين المذكورتين ، ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات وهو حصن عظيم وتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان ، وهدمت أيضاً» . . ويؤكد « العيني » على أخذ حصن القليعات بالأمان[1] : « . . . لما أشرفنا على القليعات سأل أهلها الأمان فأمنهم المخدوم يعني قلاون ، وتسلم الحصن ، وحمل الأسرى المأخوذين منه على جمال أرسلها السلطان إليه ، وحمل بهم على جسر يعقوب بحيث يراهم أهل صفد ، فانقطعت قلوبهم خوفاً ومزقاً ، وشاهدوا أصحابهم على تلك الحال والعساكر تسوقهم مصفدين على الجمال ، فأيقنوا بالتلف ، هذا والسلطان قد نازلهم ، فانضم هذا العسكر إليه واجتمعوا لديه » . وكانت هذه القلاع الثلاث بمثابة « مثلث استراتيجي » لحماية طرابلس من كل هجوم مصدره الشمال والشمال الشرقي[2] .

وهكذا احتك المماليك بأول المناطق اللبنانية وأصبحت مدينة طرابلس مهددة بين ساعة وأخرى بعد انهيار حامياتها البعيدة[3] .

أنطاكية :

وفي شعبان عام ٦٦٦/ ١٢٦٨ عاود بيبرس الإغارة على طرابلس، «فأخرب قراها وقطع أشجارها ، وغوّر أنهارها ، ثم رحل عنها إلى حصن الأكراد ، ونزل بالمرج الذي تحته ، فحضر إليه رسول من فيه بإقامة وضيافة ، فردها عليه ، وطلب منهم دية رجل من أجناده، كانوا قتلوه ، مائة

---

(١) العيني ، عقد الجمان (Recueil) ، ج ٢ ، ق ١ : ٢٢٢ .

(٢) Grousset, Histoire, III, p. 631.

(٣) Ibid., p. 639.

ألف دينار فارضوه » [1] ، ثم رحل إلى حمص ثم إلى حماه فأفامية [2] ، وبعد استراحة قصيرة ، « أمر جيشه بلبس آلة الحرب » ، ثم نزل على أنطاكية في الرابع من رمضان سنة ٦٦٦/ ١٨ أيار ١٢٦٨ ، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان ، وشرطوا شروطاً لم يجبهم إليها ، عندها تسلقت عساكر السلطان أسوار المدينة ، وسرعان ما سقطت القلعة بعد ذلك ، فتسلمها الظاهر بيبرس بعد أن أعمل فيها القتل والنهب والسبي ، وأُحصي من قتل بأنطاكية فوق الأربعين ألفاً [3] ، ثم أخذ «بغراس» بالأمان ، وذلك يوم السبت ١٣ رمضان من السنة [4] .

وبعد سقوط أنطاكية بدت طرابلس مهددة تواجه أشد الأزمات التي مرت فيها سواء أكانت داخلية أم خارجية ، لا سيما وعساكر السلطان يتقدمون نحوها .

وإثر سقوط أنطاكية كتب بيبرس رسالة إلى خصمه اللدود بوهيمند المقيم آنذاك بطرابلس يعلمه بفتح أنطاكية ،وهي من إنشاء «ابن عبدالظاهر» تتضمن عباراتها الكثير من السخرية والتهكم اللاذع ، هاكم نصها : [5] « قد

---

(١) الذهبي، العبر ٥ : ٢٨٣ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ٨ : ١٢٦ ؛ ابن كثير ١٣ : ٢٥١ ؛ المقريزي ، السلوك ٢/١ : ٥٦٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٤٢ .

(٢) ويقال أيضاً فامية (بحذف الهمزة) ، وهي مدينة كبيرة بالشام بين أنطاكية وحمص . ياقوت ، معجم البلدان ١ : ٢٢٧ ؛ الحميري ، الروض المعطار : ٤٣٣ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٠٧ وما بعدها ؛ الذهبي ، العبر ٥ : ٢٨٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٤ ـ ٥ ؛ ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٠٨ ؛ ابن كثير ١٣ : ٢٥١ ـ ٢٥٢ ؛ المقريزي ، السلوك ٢/١ : ٥٦٧ ـ ٥٦٨ ؛ ابن تغري بردي النجوم ٧ : ١٤٣ ؛ Cahen, La Syrie, p. 716 - 716.

(٤) ابن عبدالظاهر ، نفسه : ٣٢٥ ـ ٣٢٧ ؛ أبو الفدا ، نفسه : ٤ ـ ٥ . وبغراس هي قلعة مرتفعة من جند قنسرين بينها وبين أنطاكية ١٢ ميلاً . ياقوت ١ : ٤٦٧ ؛ أبو الفدا، تقويم : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ Dussaud, Topographie, p. 162

(٥) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه : ٣٠٩ ـ ٣١٣ .

علم القومس الجليل، المبجل المعزز، الهمام الأسد الضرغام، فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية بيمند المتنقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه ـ من البرنسية إلى القومصية ـ ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده ، ما كان من قصدنا طرابلس ، وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار. وكيف كُنست تلك الكنائس على بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جُعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قُتلت الرجال واستخدمت الأولاد ، وتملّكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق ، إن شاء الله ، والستاير ، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي . هذا وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً : « علي هذا الصوت » . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلّا إلى أجل معلوم معدود ، وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلّا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي لدينا جارية ، ولا سارية إلا وهي في أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعت تلك المغائر التي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدّق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر . وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي عليك قد عم .

كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء رابع وعشرين شعبان ، ونزلنا أنطاكية في مستهل رمضان ، وفي حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كنداصطبل، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعيانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من اتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحدة ، فلما

رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : « نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول في الانذار والآخر » . فرجعوا وهم متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، وفي بعض ساعة مرّ شأن المرشان وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها ، . . وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل بعدها مخبراً » .

حصن الأكراد:

ثم أغار بيبرس بعد ذلك على المرقب [1] « فوجد من الأمطار والثلوج ما منعه فارتد عنه [2] . وفي سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ نازل حصن الأكراد [3] ، وجدَّ في حصاره ، واشتد عليه القتال حتى ملكه بالأمان في ٢٤ شعبان ، فأطلق من فيه من الافرنج، فتوجهوا إلى طرابلس » [4]. ويحدثنا «ابن

---

(١) قلعة ساحلية تابعة لنيابة طرابلس .
القزويني ، آثار البلاد : ١٧٣ ؛ أبو الفدا ، تقويم : ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛
Dussaud , Topographie, p. 94, 127 et suiv., 135; G -Demombynes, La Syrie, p. 114.

(٢) ابن أيبك الدواداري ، كنز ٨ : ٤٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٤٨ .

(٣) حصن منيع من جند حمص ، تولى حمايته جماعة من الأكراد سنة ٤٢٢/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣١ ، فنسب إليهم، وكان يسمى قبل ذلك «حصن السفح»، ويذكره المستشرقون باسم «Crac des Chevaliers».
Elisséeff, art. Hisn al - Ākrād, EI^2, III, p. 520 b - 523 a.

(٤) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٦ ؛ ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٢٧ ـ ٥٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢٥٩ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٥٩١ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ Cahen, La Syrie, p. 719

عبدالظاهر» عن أخذ بيبرس لحصن الأكراد بقوله[1]: «وفي تاسع رجب نازل السلطان حصن الأكراد بعد إغارته على طرابلس . وفي العشرين منه أخذت أرباض حصن الأكراد ، ووصل الملك المنصور صاحب حماه بعسكره . . . ووصل الأمير سيف الدين ، صاحب صهيون ، وصاحب دعوة الإسماعيلية الصاحب نجم الدين ، وفي أواخر رجب تكمل نصب عدة مجانيق ، وفي سابع شعبان أخذت الباشورة بالسيف ، وجعل للسلطان مكان يرمي منه النشاب ، وصار يعطي المال والخلع . وفي سادس عشر شعبان تشقق برج من أبراج القلعة ، وزحف الناس ، وطلعوا على القلعة وتسلموها ، وطلع الفرنج إلى التلة ، وأحضر جماعة من الفرنج والنصارى ، فأطلقهم السلطان صدقة عن الملك السعيد ، ونقلت المجانيق إلى القلعة ، ونصبت على التلة ، وكتب السلطان كتباً على لسان مقدم الافرنج بطرابلس إلى من بالتلة ، يأمرهم بالتسليم ، ثم طلبوا الأمان ، فكتب لهم أمان على أنهم يتوجهون إلى بلادهم ، وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان ، خرج الافرنج منها ، وجهزوا إلى بلادهم وتسلم الحصن» .

بعد سقوط حصن الأكراد ، رحل الظاهر بيبرس عنه ، وعهد للأمير عز الدين أيبك الأفرم بعمارته، وإثر ذلك طلب صاحب طرطوس المهادنة عبر رسول منه إلى السلطان يحمل إليه مفاتيح مدينته ، فصالحه بيبرس على نصف ما يتحصّل من غلال بلده وجعل طرطوس نائباً عنه فيها. ثم صالح بيبرس صاحب حصن المرقب على المناصفة يوم الإثنين أول رمضان سنة ٦٦٩/ نيسان ١٢٧١ ، وتقررت هدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام[2] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٢) ابن عبدالظاهر، المصدر نفسه: ٣٧٨ - ٣٧٩؛ ابن أيبك الدواداري، كنز ٨: ١٥٤ - ١٥٥؛ ابن أبي الفضائل، النهج : ٥٣١ - ٥٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٢٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم: ١٥١.

حصن عكار:

وفي رمضان عام ٢٩/٦٦٩ نيسان ١٢٧١ ، بدأ بيبرس هجومه على حصن عكار[١] ، آخر حصون طرابلس الأمامية ، و « رمى المنجنيق الذي قبالة الباب الشرقي رمياً ، فخسف خسفاً كبيراً إلى جانب المدينة ، ودامت عليها حجارة المنجنيق إلى الليل ، حتى انفتحت واتسعت ، فخاف أهل الحصن من ذلك ، فبعثوا رسولاً يطلبون الأمان ، واتفق الحال على أن يأمنهم من القتل ، ويمكّنهم من التوجه إلى طرابلس ، فخرجوا منه وبعث معهم « بيسري » فأوصلهم إلى طرابلس ، ثم دخل السلطان إلى الحصن ، ورتب فيه نواباً ورحل عنه . . »[٢] ، وفي «ابن عبدالظاهر»[٣]: « نزل السلطان على عكار في سابع عشر رمضان ، ورتب طلوع المجانيق ، وركب بنفسه على الأخشاب فوق العجل في تلك الجبال إلى أن وصلها إلى مكان نصبت فيه ، وطلب الحجارين وعمل بيده ، ومهّد الطرقات ، وحفرها ، وشرع في نصب المجانيق الكبار في العشرين منه . وجدّ أهله في المناضلة ورمي الحجارة بالمجانيق ، واستشهد عليه ركن الدين منكورس الدواداري ، وكان يصلي في خيمته ، فجاءه حجر منجنيق فمات. . . ». وشددت العساكر الحصار ، وأخذوا النقوب في الأسوار . فلما رأوا أنهم عاجزون عن مقاتلتهم طلبوا الأمان ، ورفعت عليه السناجق ، وخرج أهله في آخر الشهر ، فجهزوا إلى مأمنهم ، وعيّد السلطان بها عيد الفطر ، ثم رحل إلى مخيمه بالمرج ، وكتب إلى صاحب طرابلس يحذره وينذره .

---

(١) ويقال له أيضاً حصن ابن عكار نسبة إلى بانيه محرز بن عكار ، وهو يقع على مسافة يوم من طرابلس لجهة الشرق .
ابن شداد ، الأعلاق ٢/٢ : ١١٣ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٨٢ .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٦ ؛ ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٣٢ ـ ٥٣٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٥٢ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

وفي ٤ شوال ٦٦٩/ ١٢٧١ نزل السلطان على طرابلس .

وبدت طرابلس مهددة ، ففرنجتها في خوف دائم لسقـوط الحصون والمدن التي تؤمن حماية مقدمتها . لكن السلطان رأى أنه من الخطأ التعرض لها بعد أن انتشرت الأخبار بقدوم حملة صليبية جديدة،وأنها فعلاً قد وصلت طلائعها إلى عكا في أواخر رمضان سنة ٦٦٩/ ١٢٧١ بقيادة ملك انكلترا ادوارد الأول (Edward I)[١] . وقد وجد بيبرس الفرصة المناسبة عندما أرسل إليه بوهيمند السادس يستعطفه ويسأله الصلح ، فسيّر إليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك ، والأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمقترحات شرطها عليه، وهي « أن يكون للسلطان من أعمال طرابلس نصف بالسوية ، وأن يكون له دار وكـالة وزكـاة ، وأن يعطي العسكـر من يوم خـروجه النفقة »[٢] .

رفض صاحب طرابلس شروط السلطان ، إذ وجد في قبولها إذلالاً لكرامته ، وعقد العزم على القتال « فنصب الملك الظاهر المجانيق » ، ثم ترددت الرسل ثانية ، وتقرر الصلح بين الطرفين . وجاء في « العيني »[٣] عن صلح طرابلس : « سار [السلطان] طالباً مدينة طرابلس وقد أمد العساكر ، فلبسوا الجواشن والخوذ وساروا بأهبة الحرب ، وأحاطوا بطرابلس إحـاطة الهالات بالأقمار ، والأكمام بالثمار ، فلما عاين برنس طرابلس قدوم العساكر وهجومهم كالسيل الهامر ، أرسل يسأل الصلح ، فأجابه السلطان إليه». وقال «ابن كثير»[٤]: «أرسل إليه صاحبها يقول ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض ؟ فقـال جئت لأرعى زرعكم ، وأخرب بـلادكم ، ثم أعـود إلى

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٨٣ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٥٩٢ ، وحاشية رقم ٤ ؛ Cahen La Syrie , p. 718

(٢) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٣٤؛ المقريزي، المصدر نفسه: ٥٩٣؛ ابن تغري بردي، النجوم ٧: ١٥٢ .

(٣) العيني ، عقد ١/٢ : ٢٤٣ .

(٤) ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢٥٩ .

حصاركم في العام الآتي ، إن شاء الله تعالى ، فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابه إلى ذلك » .

أما أبرز بنود الصلح فهي :

١ ـ أن تكون عرقا وجبيل وأعمالها لبوهيمند ، مع التأكيد بأن عرقا وأعمالها وهي ٥٦ قرية صدقة من الملك الظاهر عليه .

٢ ـ أن يكون ساحل طرطوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحي بين السلطان وبين الداوية والأسبتار.

٣ ـ أن تؤول بعرين وحمص القديمة إلى السلطان .

٤ ـ مدة الصلح عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام [١] .

وفي رمضان عام ٦٧٣/ ١٠ آذار ١٢٧٥ توفي بوهيمند السادس، وخلفه ابنه بوهيمند السابع ، فاقتضى الأمر تجديد معاهدة الصلح ، فسأل بوهيمند الابن السلطان بيبرس أن يأذن بارسال من ينوب عنه إلى طرابلس ليوقع تجديد الصلح ، فكان له ذلك في ٨ المحرم عام ٦٧٤/ أواخر تموز ١٢٧٥ ، وقد نص الإتفاق على أن يدفع بوهيمند السابع لبيبرس مبلغاً قدره عشرون ألف دينار كل سنة ، ويرد إليه عشرين أسيراً [٢] .

إن تحديد الهدنة مع صاحب طرابلس قد طرح تساؤلات عدة حول طبيعة الأسباب التي دفعت بيبرس لاتخاذ مثل هذا القرار في الوقت الذي كانت الظروف تسمح بالاستيلاء على طرابلس ، لا سيما بعدما شاعت الأخبار عن تأزم العلاقات داخل المعسكر الصليبي إن في طرابلس نفسها أو خارجها ؟

---

(١) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ١٥٢ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٤٤٥ ـ ٤٤٧ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٦١٩ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ٧: ٤٠٥ .

في الواقع إن عاملين هامين أخرا سقوط المدينة بيد السلطان هما :

١ ـ تعاون الإسماعيلية والنصارى (الموارنة) في شمال البلاد مع الصليبيين .

٢ ـ تعدد جبهات القتال .

بالنسبة للعامل الأول ، فإن الإسماعيلية أو الحشيشية [١] ، وهم أصحاب حركة دينية باطنية ، كانوا قد أقاموا لهم دويلة مستقلة في القسم الجنوبي من جبال النصيرية المعروفة بجبال البهرة الشاهقة الوعرة المسالك ، ثم عمدوا إلى توسيع دويلتهم ، فضموا إليها حصوناً وقلاعاً منيعة أبرزها القدموس والخوابي والكهف ومصياف[٢] .

واعتمد الإسماعيليون لتأمين بقاء دولتهم ، خلال الحقبة الواقعة ما بين ٥٣٥ ـ ١١٤٠/٦٧٠ ـ ١٢٧٢ على التوازن القائم بين قوتي المسلمين والصليبيين ، كما اعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على قلاعهم المنيعة من جهة والاغتيالات السياسية من جهة أخرى، بسبب افتقارهم إلى جيش قادر على مواجهة جيرانهم الصليبيين من ناحية والسلاجقة المسلمين من ناحية أخرى ، لذلك اهتموا بتنظيم جماعة الفداوية لتنفيذ خططهم في اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين والصليبيين ؛ فقد حاولوا اغتيال السلطان صلاح الدين نفسه مرتين دون أن يفلحوا في ذلك [٣] ، ووُفّقوا في اغتيال عدد من الأمراء

---

(١) الحشيشية : وهي فرقة من الشيعة الإسماعيلية على مذاهب النزارية ، أقاموا لهم دولة مستقلة مركزها قلعة آلموت جنوبي بحر قزوين ، وقد عرفوا بالحشيشية ، إما لاستخدامهم الحشيش لتخدير جماعة الفداوية ، أو لأنها مشتقة من لفظة Assassin التي أطلقها البروفسيون في طرابلس على الفداوية الذين فتكوا ببعض زعمائهم ، أو من لفظة عساسين لأن الإسماعيلية كانوا يقضون الليالي في حراسة قلاعهم وحصونهم
Baer, art.«Ïsmaʿiliyya»,EI[2], IV, P.215b - 216a; Lewis, art.«Hashishiyya»,EI[2], III, p. 275b - 276b.

(٢) ميشيل لباد ، الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية : ٨٠ ـ ٨١ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٩ : ١٢٣ ـ ١٢٤ ؛ أبو شامة الروضتين ١/٢ : ٦٥٨ ـ ٦٦٠ ؛ المقريزي ، السلوك ١/١ : ٦٢ .

المسلمين ، كما نجحوا في اغتيال ريموند الثاني أمير طرابلس سنة ٥٤٧/ ١١٥٣ ، وقتلوا كونراد دو مونتفور صاحب صور .

وفي عصر المماليك ضعفت جماعة الإسماعيلية ضعفاً شديداً بعد أن قضى المغول على إخوانهم في بلاد فارس [١] بسبب النزاع الداخلي المتواصل ، وقل شأنهم خاصة عندما دخلوا تحت حماية فرسان الأسبتارية لقاء جزية سنوية يدفعونها للأسبتار . ولما رجحت كفة المسلمين في أيام الظاهر بيبرس فقدوا استقلالهم نهائياً [٢] ؛ ففي سنة ٦٦٥/ ١٢٦٧ عرض الإسماعيلية صداقتهم للظاهر بيبرس ، وأرسلوا إليه الأموال التي كانوا يدفعونها للأسبتارية [٣] ، وفي سنة ٦٦٨/ ١٢٦٩ أرسل نجم الدين حسن بن الشعراني صاحب قلاع الإسماعيلية إلى السلطان يطلب منه أن يخفف عن شعبه الجزية التي يدفعونها لبيت المال ، وقدرها مائة ألف درهم ، فعزله الظاهر وعيَّن مكانه أحد أنصاره ، وبذا سيطر بيبرس على عدد كبير من القلاع الإسماعيلية ، وهي الكهف والخوابي والمنيقة والعليقة والقدموس والرصافة [٤] ، أما مصياف ، كرسي مملكة الدعوة ، فقد انتزعها الظاهر بيبرس من بلاد الدعوة الإسماعيلية في العشر الأوسط من رجب ٦٦٨/ ١٢٧٠ [٥] ، وفي ١١ شوال سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ استولى الظاهر على حصن العليقة من حصون الإسماعيلية الهامة [٦] ، وقد جاء في «ابن كثير» [٧] أنه بينما كان السلطان في

---

(١) Cahen, La Syrie, p. 719.

(٢) ميشيل لباد ، الإسماعيليون : ٨٩ .

(٣) المقريزي ، السلوك ١/ ٢ : ٥٥٧ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٦٥ ؛ أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٦ ؛ المقريزي ، المصدر نفسه : ٥٨٦ ـ ٥٨٧ ؛ ميشيل لباد ، المرجع السابق : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٥) ابن عبدالظاهر ، نفسه : ٣٦٦ ؛ المقريزي ، نفسه : ٥٨٧ .

(٦) ابن شداد ، تاريخ : ٣٧ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض : ٣٨٤ ، ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ؛ أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٦ ؛ المقريزي ، المصدر نفسه : ٥٨٦ ـ ٥٨٧ .

(٧) ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢٥٩ .

منطقة طرابلس «أرسل إليه الإسماعيلية يستعطفونه على والدهم، وكان مسجوناً بالقاهرة، فقال: سلموا إلي العليقة، وانزلوا فخذوا إقطاعات بالقاهرة وتسلموا أباكم. فلما نزلوا أمر بحبسهم بالقاهرة، واستناب بحصن العليقة». وفي ٢٦ صفر سنة ٦٧٠/ ١٢٧١ ضرب بيبرس الإسماعيلية ضربته التالية؛ فقد أمر بالقبض على شمس الدين ابن نجم الدين صاحب الدعوة وعلى أصحابه، وسيَّرهم إلى مصر، واستولى على حصن الخوابي [١]، ثم استولى في ٢٢ ذي الحجة عام ٦٧١/ ١٢٧٣ على بقية قلاع الدعوة، وهي الكهف والمنيقة والقدموس [٢]، وبذلك قضى الظاهر بيبرس على دويلة الإسماعيلية الحشيشية التي طالما عرقلت مشاريع زعماء المسلمين لتكوين الجبهة الإسلامية الموحدة، باغتيالاتها السياسية حيناً، وبتحالفها مع الصليبيين ضد المسلمين أحياناً، كما أنها اعترضت سبيل الظاهر بيبرس في حربه ضد الصليبيين، وأخَّرت بالتالي استرداد طرابلس.

أما الموارنة فقد مثلوا العنصر المحلي الرئيسي الذي اعتمد عليه الصليبيون في كونتية طرابلس في صراعهم مع المسلمين، فكثيراً ما كانوا يشتركون في الغزوات الصليبية للمناطق الإسلامية، وغالباً ما كانوا ينقضُّون من قراهم بأعالي الجبال ليقطعوا خط الرجعة على جيوش المسلمين ويفتكوا بهم، وقد ظهر تعاونهم مع الصليبيين واضحاً في غزوات بيبرس، وفي هذا الإطار يشير «الدويهي» إلى أن السلطان عندما حاول محاصرة مدينة طرابلس سنة ٦٦٤/١٢٦٦، انحدر إليه الموارنة (المردة) من قمم الجبال، وهزموا عساكره، وفي سنة ٦٦٥/ ١٢٦٧ سار بيبرس لحصار طرابلس، بعد أن افتتح حصن شقيف تيرون، «فانسكب عليه المردة من قمم الجبال، واضطر إلى الانسحاب إلى حصن الأكراد» [٣].

---

(١) ابن شداد، تاريخ: ٣٧؛ المقريزي، السلوك ١/ ٢: ٥٩٩.

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه: ٦٠؛ ابن عبدالظاهر، الروض: ٤١١ - ٤١٤؛ أبو الفدا، المختصر ٤: ٧.

(٣) الدويهي، تاريخ الأزمنة: ١٣٥؛ alibi, art. «The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk rule». Arabica IV, P. 288-303.

ولم تتهيأ الفرصة لبيبرس لمعاقبة المردة ، بل تولى هذه المهمة من بعده السلطان قلاون، وذلك في سنة ٦٨٢/١٢٨٣ . وقد ورد في «الدويهي»[1] أن سقوط إهدن تمَّ بعد حصار دام أربعين يوماً «فنهبوا وقتلوا وسبوا ودكوا للأرض القلعة التي بوسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل. . .».

وفيما يختص بالعامل الثاني ، فمن المعروف أن أعداء بيبرس كانوا من الكثرة بحيث لم تخل سنة من سنوات حكمه من حملات يشنها في الشام ضد الصليبيين ، وفي جنوب مصر ضد النوبيين ، ومن استعدادات حربية لغزو صليبي مرتقب على مصر[2] ؛ فالخطر المغولي لم يكن قد انحصر تماماً عن الشام ومصر بعد ، وقوة الصليبيين في الشام وقبرص والأرمن في آسيا الصغرى ، على رغم مما اعتراها من وهن واضمحلال بعد عين جالوت ، كانت لا يستهان بها . ولقد صرف بيبرس جهوده كلها لمحاربة أعدائه ، وقضى فترة حكمه كلها في جهاد متواصل في كل ناحية من نواحي دولته ؛ فالمغول ، بعد هزيمتهم ٦٥٨/ ١٢٦٠م في عين جالوت، ظلوا يشكلون خطراً على بلاد الشام ، بل أن خطرهم زادت أهميته في عهد أبغا بن هولاكو الذي تزوج من ابنة أمبراطور بيزنطية ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) ، وحرص على أن يدعم علاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المماليك . أما الصليبيون فعلى الرغم من الصلح الذي عقده صاحب طرابلس مع بيبرس في عام ٦٦٩/ ١٢٧٠ ، فقد اتصل بأبغا زعيم المغول « مستصرخاً به على المسلمين ، فلما حضر عنده ، ذكر له ما فتحه الظاهر من البلاد والحصون وقوة نفسه وعساكره ، فأمر به ، فبطح وضرب بين يديه ، وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه ، وتنفرني عنه ، وتملأ قلوب عسكري رعباً ، فرجع إلى بلاده خايباً »[3] . كذلك حاول

---

(١) الدويهي، المصدر نفسه: ١٤٦؛ ابن القلاعي، زجلية: ٤٤، ٤٧ - ٤٨؛ Saibi, Ibid., P. 294 - 295.

(٢) Cahen, La Syrie, p. 718.

(٣) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٣٧ .

بيبرس غزو قبرص التي لعبت دوراً هاماً في مساعدة الصليبيين وفي الاعتداء على سفن المسلمين في البحر المتوسط ، فأرسل سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ م أسطولاً لغزوها ، لكن الرياح حطّمت معظم سفنه بمرسى النمسون في قبرص، وعاد الباقي دون أن يحققوا أغراضهم (١) . وأما النوبيون ، فقد حرص بيبرس على تأديبهم لمنع غاراتهم التي كانوا يشنونها على حدود مصر ، ولشقهم عصا الطاعة عليه (٢) .

وهكذا ساهمت هذه العوامل في تأخير استيلاء المسلمين على طرابلس ، وكان على المماليك أن ينتظروا بعض الوقت حتى تتوفر الظروف المؤاتية ، تلك الظروف التي نضجت في عهد السلطان المنصور قلاون .

وصادف أن توفي بوهيمند السادس في ٩ رمضان ٦٧٣/ ١٠ آذار ١٢٧٥ ، وخلفه ابنه القاصر بوهيمند السابع (١٢٧٥ - ١٢٨٧) الذي حكمت باسمه أمه الكونتيسة سيبل (Sibylle) الأرمنية الأصل ، ولكن الكونتيسة لوسي دوسني (Lucie de Segni) ، أرملة بوهيمند الخامس ، كانت تسعى هي الأخرى للفوز بالسلطان معتمدة في ذلك على تأييد الجالية الإيطالية بطرابلس إضافة إلى دعم أخيها « بول » أسقف طرابلس ، وغي الثاني (Sir Guy) صاحب جبيل ، وشاركت منظمتا الأسبتار والداوية في النزاع القائم ؛ فأيد الأسبتار الكونتيسة سيبل ، بينما تحزّب الداوية للكونتيسة لوسي ، وتبع ذلك قيام حرب أهلية مريرة كانت نتائجها سيئة على الجميع لما خلفته من خراب وتدمير في كثير من المنشآت (٣) ، وكان غي الثاني يسعى

---

(١) ابن شداد، تاريخ : ٣١٢؛ ابن عبد الظاهر، الروض، ٣٨٦ - ٣٨٨؛ أبو الفدا، المختصر ٤ : ٦؛ ابن أبي الفضائل، النهج : ١٩٧ وما بعدها؛ المقريزي، السلوك ١/ ٢ : ٥٩٣ - ٥٩٤؛ العيني، عقد ٢/ ١ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه: ٥٣، ١٢٩ - ١٣١؛ ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه: ٤١٦؛ أبو الفدا، المصدر نفسه: ٩؛ المقريزي، المصدر نفسه: ٦٢١ - ٦٢٣.

(٣) Grousset, Epopée, p. 376.

للإستيلاء على طرابلس ، فكاتب فرسان طرابلس كي ينضموا إليه ضد الأمير بوهيمند السابع ، كما فاوض السلطان المنصور قلاون ، خليفة بيبرس ، عارضاً عليه أن يقتسم معه طرابلس ، فسارع السلطان قلاون إلى قبول العرض ، وأمر سيف الدين بلبان صاحب حصن الأكراد أن يمد غي الثاني بجماعة من المسلمين عرفوا باسم الجبليين[1] . وفي آخر شوال ٦٨١/ ١٢٨٢ ركب صاحب جبيل في أصحابه وجماعة من الجبليين ، ودخلوا ميناء طرابلس ليلاً ، ثم تسللوا إلى المدينة ، وكان الخبر قد نمي إلى بوهيمند فأوقع بهم ،وقصد غي الثاني دار الداوية فقبض عليه بوهيمند وأودعه سجن طرابلس ، فظل سجيناً حتى توفي ، وقيل أن صاحب طرابلس أغرقه وأصحابه في البحر ، ثم احتل جبيل ، فصارت له مع طرابلس[2] .

وكان السلطان قلاون قد حرص منذ توليه السلطنة على مهادنة الصليبيين حتى يتفرغ لدفع العدوان المغولي على الشام ، وحتى لا يفاجئه الصليبيون بالهجوم على أراضي المسلمين في الوقت الذي يكون فيه منشغلاً بمقاتلة المغول ، لذلك لم يتردد في الموافقة على تجديد الهدنة بينه وبين فرسان الأسبتارية بعكا في ٢٢ المحرم سنة ٦٨٠/ ٣ أيار ١٢٨١[3] ، وبينه وبين بوهيمند السابع لمدة عشر سنوات كاملة تبدأ في ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٨٠/ ١٥ تموز ١٢٨١ ، وقد أثبت هذه الهدنة « ابن عبدالظاهر »[4] بالصيغة التالية :

---

(١) يقصد بالجبليين هنا جماعة من المسلمين كانوا مع صاحب جبيل جي الثاني (Sir Guy) الفارس التمبلاري الذي سماه القطب اليونيني سيركي ، أمده بهم الأمير سيف الدين بلبان بناء على أوامر السلطان قلاون بعد أن اشترط جي الثاني على نفسه أنه متى تملكها تكون مناصفة بينه وبين المنصور قلاون (ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٣١٦ ، والحاشية رقم ٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣١٥ ـ ٣١٦ ؛ Grousset, Epopée, p. 376

(٣) ابن عبدالظاهر ، تشريف: ٢١٣ ـ ٢١٥ .

(٤) أيضاً : ٢١٠ ـ ٢١١ .

« تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام « بيمند بن بيمند » - ملك الفرنج - لمدة عشر سنين كوامل متواليات ، أولها السابع والعشرين في شهر ربيع الأول من هذه السنة ، الموافق الخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسماية واثنين وتسعين للاسكندر اليوناني ؛ وذلك على بلاد الملك المنصور ، والملك الصالح ولده قريبها وبعيدها ، وسهلها وجبلها ، غورها ونجدها ، قديمها ومستجدها ، وما هو مجاور لطرابلس ، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها ، وقراها الرحلية والجبلية ، وجبال الضنين والقصبين ، وما هو من حقوق ذلك ، وعلى الفتوحات المستجدة ، وهي الأكراد ، وأفليس ، والقليعات ، وصافيتا ، وميعار ، وأطليعا وحصن عكار ، ومرقية ، ومدينتها ، وبلادها ، ومناصفاتها ، وهي بلاد الملكية .

وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الأسبتار ، وبلده ، ومدينته ، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى ، وبلاد الست ، وبلاطنس وبلادها ، وجبلة ، ولاذقية ، وأنطاكية ، والسويدية ، وبلاد ذلك ، وحصن بغراس ، وحصن ديركوش ، وصهيون ، وبرزيه ، وحصون الدعوة ، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية ، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور ، ويد ولده ، وعلى الموانىء ، والسواحل ، والأبراج ، وغير ذلك ، وعلى بلاد الابرنس ، وعلى طرابلس ، وما هو داخل فيها ، وأنفه ، والبترون ، وجبيل ، وبلاد ذلك ، وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة ، وعدّتها أحد وخمسون ناحية ، وما هو للخيالة والكنائس ، وعدّتها أحد وعشرون بلداً ، وما هو للفارس « روجار دلالولاي » من قبلي طرابلس يكون مناصفة ، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة ، وتستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية ، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً ، وهم المشدّ والشاهد والكاتب ، وثلاث غلمان لهم، وعشر رجالة في خدمة المشد ، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنونها ، ولا يحصل منهم أذية لرعية الابرنس ، وإنما يمنعوا ما يجب منعه من الممنوعات ، ولا

يمنعوا ما يكون من عرقة وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها ، لا يعارضهم المشد فيه ، وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق .

ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للابرنس ولا غيره إلّا ويؤخذ الموجب عليها ، وعلى أن الابرنس لا يستجدّ خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع ، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها ، وعلي الشواني من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى ، ولا ينقضي ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره ، وأن يحسن لأحد من أعداء السلطان ، ولا يتفق عليه برمز ولا خط ، ولا مراسلة ، ولا مكاتبة ، ولا مشافهة » .

أبرز ما ورد في هذه الهدنة :

١) أن تعقد الهدنة على جميع البلاد التابعة للسلطان وعلى ما كان مجاوراً منها لطرابلس وعلى فتوحاته المستجدة والمستقبلة [1] ، وعلى البلاد التابعة لبوهيمند وما يدخل فيها .

٢) أن يتخذ برج اللاذقية وميناؤها مقراً لنواب السلطان وصاحب طرابلس ، للإشراف على استخراج الجبايات والغلات مناصفة بينهما ، وفقاً لشروط الهدنة التي كان قد عقدها الظاهر بيبرس مع بوهيمند السادس .

٣) أن يقيم على جسر أرتوسية ١٦ نفراً من غلمان السلطان لحفظ الحقوق (الرسوم) السلطانية، على ألا يقوموا بإيذاء رعية الأمير بوهيمند .

٤) الّا تدخل طرابلس غلة للأمير بوهيمند ولا غيره دون أن يحصل عليها رسوم .

---

(١) «Le Sultan s'appropriait en paroles ce qu'il n'avait pas encore conquis avec son épée».
Prawer, Histoire du Royame, II, P. 490.

٥) على صاحب طرابلس والسلطان قلاون ألاّ يقيما أبنية حربية أو قلاعاً في البلاد التي ورد ذكرها في الهدنة .

٦) ألاّ تنقض الهدنة بموت أحد الطرفين المتعاقدين أو تغييره .

وما أن انتهى خطر المغول إثر وقعة حمص [(١)] الخميس ١٤ رجب عام ٦٨٠/ ١٢٨٢ حتى وجه السلطان قلاون اهتمامه إلى ما تبقى من إمارة أنطاكية ؛ فهاجم حصن المرقب في المحرم سنة ١٢٨٥/٦٨٤ ، واستولى عليه يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول من السنة [(٢)] . وعن سقوط هذا الحصن يذكر «أبو الفدا»[(٣)]: «أنني حضرت حصار الحصن المذكور، وعمري إذ ذاك اثنتي عشر سنة ، وهو أول قتال رأيته ، وكنت مع والدي ، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان ، فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته ، فإنه لو أخذه بالسيف وهدمه كان حصل التعب في إعادة عمارته ، فأعطى أهله الأمان ، على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح ، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور ، وتسلمه في الساعة الثامنة من نهار الجمعة تاسع عشر ربيع الأول من هذه السنة ، أعني سنة ٦٨٤ ، وكان يوماً مشهوداً أخذ فيه الثأر من بيت الأسبتار ، ومحيت آية الليل بآية النهار » .

وبعد أن افتتح قلاون حصن المرقب أمر بالابقاء عليه لحصانته ومناعته ، ورتّب عليه حامية قوية من جنده ، وزوّده بالمجانيق والآلات

---

(١) أبو الفدا، المختصر ٤ : ١٤ ـ ١٥ ؛ ابن شاكر، فوات الوفيات ٣: ٢٠٤ ؛ ابن كثير، البداية ١٣ : ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ؛ المقريزي، السلوك ١/٣: ٦٩٠ ـ ٦٩٩ .

(٢) كذا في المصادر السابقة باستثناء ابن كثير (١٣ : ٣٠٥) الذي ذكر أن سقوط الحصن كان «يوم الجمعة تاسع عشر صفر » .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢١ ؛ راجع أيضاً :
ابن عبدالظاهر ، تشريف : ٧٨ ؛ الذهبي ، العبر ٥: ٣٤٦ ؛ ابن شاكر ، فوات ٣ : ٢٠٤ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٢٧ ـ ٧٢٨ ؛ Cahen, La Syrie, p. 720 - 721

والنشاب والزرد خاناه والنفط [١] ، ولم يكتف السلطان بفتح هذا الحصن ، وإنما زحف بعد ذلك إلى « بارتلمي » صاحب مرقية ، وكان الظاهر بيبرس قد افتتحها ثم استردها الصليبيون وحصّنوها ، وكلفوا فرسان الأسبتارية بحمايتها ، وعندما شاهد قلاون مناعة حصن مرقية عزم على هدمه ، واتفق حضور صاحب طرابلس لمهادنته وطلب مراضاته ، فاشترط عليه هدم حصن مرقية لأنه بني تحت إشراف بوهيمند نفسه ، كما اشترط أيضاً إطلاق من كان مسجوناً فيه من الجبليين المسلمين الذين أسروا عندما شاركوا في حملة صاحب جبيل الفاشلة على طرابلس ، وقد أشرنا إلى ذلك في حينه [٢]، فاستجاب بوهيمند السابع على مضض ، وسلّم الحصن للسلطان ، بعد أن عوض صاحبه مالاً وضياعاً ، وهدم الحصن المذكور تحت إشراف الأمير بدرالدين بكتاش النجمي ، وبحضور مقدم إفرنجي بعثه بوهيمند على رأس جماعة من الحجّارين [٣] . وهكذا لم يبق أمام قلاون سوى مدينة طرابلس نفسها وبرج اللاذقية ، فأخذ يتحين الفرص للاستيلاء عليهما .

وفي عام ١٢٨٧/٦٨٦ ، جهّز السلطان عسكراً كثيفاً بقيادة نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي ، الذي نزل بمن معه من العساكر المصرية والشامية إلى قلعة صهيون لانتزاعها من الأمير المتمرد شمس الدين سنقر الأشقر ، الذي كان قد امتنع عن الحضور لفتح المرقب، وبعد حصار شديد تسلم الحصن بالأمان [٤] ، ثم توجه طرنطاي إلى اللاذقية ، « وكان لها برج للفرنج يحيط بها البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً إليه في البحر بالحجارة ، وحاصر البرج المذكور ، وتسلمه بالأمان وهدمه » [٥] .

---

(١) ابن عبدالظاهر ، تشريف : ٧٨ .
(٢) راجع ما ورد في الصفحتين ٧٠ ـ ٧١.
(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف: ٨٩ ـ ٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم ٧: ٣١٦ ـ ٣١٧.
(٤) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢١ ؛ المقريزي ، السلوك ١/ ٣ : ٧٣٤ .
(٥) أبو الفدا ، المصدر نفسه: ٢٢ .

وفي هذا الوقت توفي بوهيمند السابع في ١٠ رمضان سنة ٦٨٦ / ١٩ تشرين الأول ١٢٨٧ ، فكانت وفاته نذيراً بنهاية إمارة طرابلس الصليبية ، فقد مات بوهيمند دون وريث في الوقت الذي كانت طرابلس في أمس الحاجة إلى زعيم قوي يتولى قيادتها، وكان من الطبيعي أن ترثه أخته «لوسي» زوجة «نارجوت دي توسي» أمير البحر في نابولي، ولكن الكونتيسة «سيبل» (Sibylle) ، والدة بوهيمند ، سعت إلى الظفر بالإمارة معتمدة في ذلك على شعبيتها ، فقام صراع بين المتنافستين على الحكم ، واستنجدت « لوسي » بالأسبتارية حلفاء أخيها بوهيمند الذين ساعدوها في التغلب على منافستها ، إلّا أن أهل طرابلس لم يقبلوا بهذه النتيجة ، واضطرب الوضع في طرابلس ، عندها أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام كومون ـ أي حكم بلدي مستقل ـ برئاسة برتلمي أمبرياتشي [١] (Barthélémy Embriaco) صاحب جبيل الذي استنجد بجنوا . وتذكر بعض المصادر أن « بارتلمي » هذا قد استنجد أيضاً بالسلطان قلاون طالباً منه أن يعينه على خصومه ، وفي مقابل ذلك تكون طرابلس مناصفة بينه وبين السلطان [٢] ، على أن الحاصل هو أن جنوا استجابت لنداء أهل طرابلس ، وأرسلت بعض سفنها لمساعدتهم ، نظراً لما رأته في السيطرة على طرابلس بالذات من تحقيق لمكاسب تجارية عظيمة ، فضلاً عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية . ولاحت في الأفق بوادر الحرب الأهلية بين الجنوية وغيرهم من اللاتين والإيطاليين لولا نجاح سفير جنوا بنديتو زكريا (Benedetto Zaccaria) في عقد اتفاق مع صاحب جبيل ، رئيس كومون طرابلس ، أسفر عن وضع المدينة تحت حماية الجنوية الذين حصلوا على كثير من الشوارع والأسواق والمنازل فيها ، إضافة إلى عدة حقوق وامتيازات أخرى، مقابل اعتراف الجنوية بحقوق الأميرة «لوسي» في طرابلس[٣]، ثم

---

(١) Grousset, Epopée, p. 377.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم ٧: ٣٢٠ ـ ٣٢١؛ عاشور، الحركة الصليبية ٢: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) Jacopo D'Oria, Ann., VIII, p. 204, 205 et 207.

كتب أهل طرابلس بما تم مع جنوا إلى الأميرة «لوسي» التي كانت في عكا، دون أن يعلم الجنويون بما توافق عليه أهل طرابلس و«لوسي» إلّا عن طريق الأميرة نفسها التي أدركت أنه لا فائدة من عقد اتفاقية مع أهالي طرابلس دون موافقة الجنوية ، وفي المقابلة التي تمت بين رئيس الجنوية والأميرة «لوسي» في صور عقدت اتفاقية بين الطرفين وافقت «لوسي» بمقتضاها على جميع ما حصل عليه الجنويون من امتيازات في طرابلس، كما أقرت الحقوق التي حصل عليها الكومون مقابل موافقة جنوا على إعلانها أميرة على المدينة [١] ، وقد عكس هذا الاتفاق استياء كبيراً لدى البيازنة والبنادقة ، فضلاً عن معارضة مقدمي الداوية والأسبتارية والتوتون جميعاً .

طرابلس :

وأدى الواقع المضطرب لحالة الصليبيين عموماً وفي طرابلس خصوصاً ، إلى انقسام أهلها شيعاً تتناحر فيما بينها ، « حتى ذهب الصليبيون بأنفسهم إلى القاهرة يطلبون من السلطان قلاون التفضل بالاستيلاء على المدينة » [٢] ، إلى جانب ذلك كانت طرابلس تشكو كثافة النازحين إليها من المدن والقلاع الأخرى التي استولى عليها المسلمون ، لكنها مع ذلك كانت تعوزها القوة اللازمة للوقوف أمام المماليك ، وحاولت أميرتها «لوتشيانا» أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، وتكتلت قوى الصليبيين للدفاع عن المدينة أمام الغزو المملوكي الوشيك . وأرسل ملك قبرص نجدة عاجلة من فرسان الجزيرة [٣] ، كما أسرع فرسان الأسبتارية لتقديم العون ، رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس ، أما عكا فقد أسهمت هي الأخرى في مساعدة طرابلس ، وكذلك تناسى الجنوية والبنادقة والبيازنة خصوماتهم مؤقتاً ، فرموا جانباً ما بينهم من

---

(١) Ibid., p. 204, 205 et 207.

(٢) Setton, A history of the Crusades, II, p. 592 ; Prawer, Histoire, II, P 537.

(٣) المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٤٧ .

عداوة ومصالح متباينة واضعين نصب أعينهم التخلص من الخطر الداهم الذي يهددهم جميعاً ، وتضامنت سفنهم في حماية طرابلس من ناحية البحر [١] ، إذ « يحيط البحر بغالب هذه المدينة ، وليس عليها قتال في البر إلّا من جهة الشرق ، وهو مقدار قليل » [٢] .

وصادف أن اعتدى صليبيو طرابلس على التجار المسلمين ، وقطعوا الطريق على المسافرين ، عندها أعلن قلاوون أن أهل طرابلس قد نقضوا الهدنة ، ثم جمع قواته و « تجهز لأخذ طرابلس » ، وخرج فعلاً من مصر إلى الشام في المحرم سنة ٦٨٨/ شباط ١٢٨٩ [٣] ، بعد أن كتب إلى جميع نوابه في الشام بتجهيز الجيوش إلى طرابلس، وإرسال المجانيق وآلات الحصار [٤] . وفي ١٣ صفر وصل السلطان إلى دمشق ، وأقام فيها أسبوعاً ، وبعد أن تم تجميع العساكر زحف في ٢٠ صفر متجهاً إلى طرابلس على رأس جيش عظيم مؤلف من أربعين ألف فارس ومئة ألف من المشاة [٥] ، « بعد أن وجه أمامه المجانيق وآلات الحصار إلى نحو طرابلس » [٦] . ثم شرع السلطان في إحكام الحصار حول المدينة في مستهل ربيع الأول سنة ٦٨٨/ ١٧ آذار سنة ١٢٨٩ [٧] ، وأخذ النقابون ينقبون أسوارها . ويروي «ابن

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك ١ : ١٥١ و ـ ظ؛ - Jacopo D'Oria, op. cit, p. 215 et n. 1 - 3,216 et n.1 - 2,217 et n 1 - 2; Prawer, op. cit., p. 537.

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٣ ؛ المقريزي ، المصدر السابق : ٧٤٦ .

(٤) المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٤٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ٨: ٨٠ .

(٥) Grousset, Epopée, p. 377.

(٦) ابن أيبك الدواداري ، كنز ٨ : ٢٦٨ .

(٧) كذا في المصادر الإسلامية . بينما حدده « يعقوب دوريا » في ١٠ نيسان / ١٧ ربيع الأول من السنة .

Jocopo D'Oria, op. cit., p. 215 et n. 3.

الدواداري»[1] عن والده أن عدة المجانيق على طرابلس كانت ١٩ ، منها ٦ إفرنجية ، و١٣ قرابغا ، وكان عدة الحجّارين والزراقين ١٥٠٠ نفراً ، وظل قلاون مقيماً على حصاره لها مدة ٣٤ يوماً .

وفي تلك اللحظة الحرجة بدا أن تعاون البنادقة مع الصليبيين في الدفاع عن طرابلس لم يكن صادقاً ، فقد اتهم البنادقة بإغراء السلطان على غزو المدينة والحرص ، منذ أن بدأ الحصار ، على جمع أموالهم وبضائعهم من المدينة وتهريبها عن طريق البحر إلى قيليقية[2] ، وعندما وجد الجنوية أن البنادقة يفعلون ذلك ، حسبوا هم أيضاً أنه لا فائدة من المقاومة ، وأن المدينة على وشك السقوط ، وأنه من الخير لهم أن يسلموا بأرواحهم وأموالهم ، ولم يلبث أن أدى سلوك الجنوية والبنادقة إلى نوع من الفوضى في طرابلس ، فارتبك بقية الأهالي واستولى عليهم اليأس[3] . وفي ٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨/ ٢٦ نيسان سنة ١٢٨٩ ، أعلن السلطان الهجوم الشامل ، فتقدمت جيوشه إلى داخل المدينة ، واستولى عليها[4]. ونترك الكلام هنا «لأبي الفدا»، وهو شاهد عيان على تلك الواقعة ليقول[5] : « ... وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته ، وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل ، وابن عمي الملك المظفر صاحب حماه ، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم ، أمر السلطان ، فهدمت ودكت إلى الأرض دكاً ، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة ، وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس[6] ، وبينها وبين طرابلس الميناء . فلما أخذت طرابلس ، هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، كنز ٨ : ٢٨٣ .

(٢) Grousset, Histoire, III, P. 742.

(٣) المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٤٧ .

(٤) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢٣ ؛ ابن كثير ١٣ : ٣١٣ ؛ المقريزي ، المصدر نفسه : ٧٤٧ ؛ Grousset, Epopée, P. 378; Cahen, la Syrie, p. 721

(٥) أبو الفدا ، المصدر نفسه : ٢٣ .

(٦) كنيسة سان توماس (Saint Thomas) .

الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر ، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا ما بها من النساء والصغار».

«وهذه الجزيرة ، بعد فراغ الناس من النهب ، عبرتُ إليها في مركب ، فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى » . وكان بعض أهل طرابلس قد أسرع ، عند سقوط سورها ، بركوب سفينة في البحر ، ولكن الرياح قذفتهم إلى الساحل ، « وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم »[1] .

هلك من أهل طراباس ، بعد سقوطها في أيدي المماليك ، عدد كبير يقدره المؤرخون بنحو سبعة آلاف ، كان منهم القتلى والغرقى ، كما أسر من سكان طرابلس نحو ألف ومايتي أسير (١٢٠٠)[2]،فضلاً عما حصل عليه المسلمون من مغانم وأسلاب ، وعاد قلاوون بالأسرى والأسلاب . ولقد عانى المسلمون كثيراً أثناء حصار طرابلس من اعتداءات الموارنة أو المردة ، سكان الجبال المحيطة بطرابلس ، الذين خفوا لنجدتها ، وقتل بسببهم عدد كبير من قوات السلطان ، وممن قتل من الأمراء الكبار : الأمير عزالدين معن ، والأمير ركن الدين منكورس بن عبدالله الفارقاني ، والأمير أحمد بن الأشل[3] .

ولما فرغ السلطان من احتلال طرابلس ، أمر بهدمها ، فدكت إلى الأرض، ثم رسم بإنشاء مدينة على ميل من شرقها، « فجاءت رديئة الهواء

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٤٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ٨ : ٨٠ . والأوشاقية فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة . القلقشندي ، صبح الأعشى ٥ : ٤٥٤ .

(٢) ابن الفرات ٨ : ٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٨٥.

والمزاج »[1] . ويشير « المقريزي » إلى أن المدينة الجديدة ، التي أمر السلطان بنائها بجوار النهر ، قد حرص على أن تكون بعيدة عن الشاطىء ، وذلك خوفاً من تهديد الأساطيل الفرنجية[2] . وفي معرض حديثه عن حصانة طرابلس ومناعتها يروي « ابن الدواداري » على لسان والده : « لما رسم السلطان بهدمها طلعت فرأيت فيها العجب ، فعرض السور مقدار مشي ثلاث خيالة ، وكانت أشبه المدن بالاسكندرية» . وفي هذه المناسبة أنشد شهاب الدين أبو الثناء محمود ، كاتب الدرج ، يمدح السلطان قلاون :

«ألا هكذا يا وارثَ المُلْك فليكن — جهاد العِدا لا ما توالى به الدهرُ
نهضت إلى عليا طرابلس التي — أقلّ عناها أن خندقها البحرُ»[4]

لم يحدث سقوط طرابلس في أيدي المسلمين أي رد فعل في العالم الأوروبي بل على العكس ، فإن ملكي أرغون وصقلية بادرا بعقد تحالف مع السلطان قلاوون بعد استيلائه عليها ، وتعهدا للسلطان بمساعدته ضد أي حملة صليبية تخرج من الغرب ، وحتى ضد القوى الصليبية الباقية في بلاد الشام في حال خرقها للهدنة . أما ملوك فرنسا وانكلترا وقشتالة وكاتالونيا فقد شغلتهم المشاكل القائمة بين صقلية وأرغون عن الاهتمام بما يدور في بلاد الشام .

وهكذا تم تحرير طرابلس بكاملها من الصليبيين ، الذين كانوا قد « استولوا عليها يوم الحادي عشر من ذي الحجة سنة ٥٠٣ ، فبقيت في أيديهم إلى أوائل سنة ٦٨٨ ، فيكون مدة لبثها مع الافرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور »[5] .

---

(١) الذهبي ، العبر ٥ : ٣٥٧؛ ابن كثير ، البداية ١٣ : ٣١٣ .
(٢) المقريزي ١/٣ : ٧٤٨ .
(٣) ابن أيبك الدواداري ، كنز ٨ : ٢٨٤ .
(٤) ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٣٢٤ .
(٥) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٣٢٢ .

أنفه والبترون :

وبعد أن تم له تحرير طرابلس من الصليبيين ،أرسل السلطان قلاوون حملة للاستيلاء على أنفه والبترون ، وكان بأنفه حصن منيع يملكه فرسان الأسبتارية ، فتسلمه بالأمان ، وأمر بهدمه وتخريبه [1] .

أما البترون ، فقد كانت زمن الحروب الصليبية مطرانية تابعة لطرابلس ، وكان أسيادها ، لفترة طويلة ، ينتمون لعائلة « أنجو » القروية التي انحازت للبيازنة ، وخصَّتهم بامتيازات تجارية هامة ، فسيطر هؤلاء على مجمل المرافق التجارية في البترون ، مما أثار غيلة البنادقة والجنوية . وفي سنة ١٢٧١ وقعت في البترون حرباً أهلية بين الجاليات الايطالية ، استغلتها طائفة الأسبتار واستولت على السلطة في البترون . وظلت البترون على هذه الحال حتى سقطت طرابلس بأيدي المماليك ، عندها أرسل السلطان قلاوون من استولى على البترون دون أي مصاعب ، بعد الاستيلاء على أنفه عام ١٢٨٩/٦٨٨ [2] .

جبيل :

كانت جبيل بارونية تابعة لطرابلس ، وكان لأسيادها من عائلة أمبرياتشو، الجنوية الأصل ، دور رئيس في الصراعات التي كانت قائمة بين أسياد الفرنجة لتحقيق الأطماع والنفوذ ، حيث كانت الغاية عندهم تبرر الواسطة ، لذلك لم يجد هؤلاء غضاضة في التعاون مع المسلمين ضد أندادهم من أسياد الافرنج؛ فلقد رأينا كيف أن « غي الثاني » (سيرغي) قد زين للسلطان قلاون ، بأنه سوف يقتسم معه طرابلس إذا ما ساعده على احتلالها ، ورأينا كيف أن السلطان قد استجاب للطلب ، لكن حملته على

---

(١) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٢) Elisséeff, art. «Batrūn», EI², I, P. 1135b.

طرابلس انتهت بفشله وبسجنه حتى الموت من قبل بوهيمند السادس . ثم ذكرنا أن برتلمي أمبرياتشو ابن « سيرغي » ، قد عاود الاتصال بالسلطان مقدماً إليه العرض نفسه ، عندما احتدم الصراع على وراثة العرش في طرابلس ، إثر وفاة أميرها بوهيمند السابع . لذلك لم يكن تصرف السلطان قلاون مستهجناً عندما عمد إلى اجتذاب عائلة أمبرياتشو إلى جانبه ، بعد سقوط طرابلس ، بأن أقطع « برتلمي » المذكور مدينة جبيل شريطة إعلان تبعيته وخضوعه التام لسلطنة المماليك ، وتعهده بدفع أموالها للسلطان ، « وأقر السلطان بلدة جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه . . . » [١] .

لكن هذه الحالة الشاذة التي كانت عليها جبيل لم تكن لتدوم طويلاً ، إذ سرعان ما سقطت جبيل بأيدي المماليك أيام السلطان الأشرف خليل ، بعيد سقوط عكا سنة ١٢٩١/٦٩٠ ، وذلك عندما سيّر الأمير سنجر الشجاعي الأميرين علم الدين الداودي والجاكي [٢] إلى جبيل ، فأخذاها بأسوارها وقلعتها ، وكانت محكمة البناء « وأمر السكان أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض فخربت أصلاً » [٣] .

٢ ـ تحرير مدن الساحل اللبناني التابعة لمملكة القدس :

ونحن نبحث في تحرير مدن الساحل اللبناني التابعة لمملكة القدس الصليبية، نرى من الضرورة أن نستهل البحث بعرض مفصل لمراحل تحرير

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٤٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٧ : ٣٢١ .

(٢) علم الدين الداودي ، ورد عند المقريزي (المصدر نفسه ١/٢ : ٦٥٧ ـ ٦٥٨) باسم علم الدين سنجر الدواداري . أما الجاكي ، فقد ورد عند المقريزي (المصدر نفسه : ٤٦٩ ـ ٤٨١) باسم الأمير شرف الدين الجاكي المهمندار .

(٣) الذهبي ، كتاب دول الإسلام ٢ : ١٥٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٨ : ١٠ ؛ ابن يحيى ، تاريخ بيروت : ٢٤ .

عـكـا ، لأن مدينة عكا كانت في ذلك الحين بمثابة العاصمة الفعلية لمملكة أورشليم المتداعية، وأصبح ملك القدس، بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس إثر معركة حطين الشهيرة (٥٨٣/٤ ـ ٥ تموز ١١٨٧)، يدعى بملك عكا.

وقد أضحت عكا، بعد سقوط المدن والقلاع الصليبية الهامـة، قبلة اللاجئين الفارين من الكيد المملوكي، وأن سقوطها سيؤدي بالضرورة إلى سقوط المناطق الصليبية الأخرى الواقعة في دائـرة نفوذهـا، لا سيما الخط الساحلي الممتد من بيروت إلى صور، لذلك ليس من باب الصدفة أن يصبح تحرير عكا الشغل الشاغل للسلطان قلاوون بعيد إستيلائه على طرابلس.

عكا:

فلقد وعى المماليك أهمية عكا في المراحل المبكرة من صراعهم مع الصليبيين، وبذلوا محاولات للإستيلاء عليها مذ بدأ بيبرس أعماله العسكرية في بلاد الشام، وحاول هذا السلطان، ولمرات عدة، الإستيلاء على المدينة الحصينة، لكنه كان في كل مرة يرد على أعقابه؛ ففي سنة ١٢٦٣/٦٦١، وجه بيبرس الأمير بدر الدين الأيدمري ومعه قوة إلى عكا «وهجمـوا إلى أبوابها» وغنموا عدداً كبيراً من المواشي والأسلاب[١]، وفي نيسان من نفس السنة، توجه الظاهر بيبرس إلى عكـا لاختبار تحصينـاتها بنفسـه، ويروي المؤرخون أن بيبرس طاف بأسوار عكا من ناحية البر، وكلف بعض عساكره بحصار برج للصليبيين كان قريباً منها، فشرعوا في نقبه، ثم عاد السلطان بعد ذلك في اليوم نفسه. وعندما علم أن الصليبيين قد شرعوا في حفر الخنادق وإقامة التحصينات قرب عكا، خرج إليها ثانية، وردم رجاله الخنادق التي حفرها الصليبيون، وهدموا الأبراج المحيطة بها، وأحرقوا ما حولها من

---

(١) ابن عبدالظاهر ، الروض : ١٥٧ ؛ أبو الفدا ، المختصر ٣ : ٢١٧ ـ ٢١٨ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٤٦٤ .

أشجار، كما هاجموا أبواب عكا[1]. وربما أدى هروب الصليبيين داخل أسوار عكا إلى أثارة مطامح بيبرس في الإستيلاء على المدينة، لكنه على ما يبدو، لم يكن مستعداً في تلك المرة لذلك العمل العسكري الكبير، ويؤكد ذلك اعتراف «المقريزي» بأن السلطان أنما قصد من تلك الأعمال العسكرية «كشف مدينة عكا، فإن الافرنج كانوا يزعمون أن أحداً لا يجسر أن يقترب منها»[2].

وفي سنة ٦٦٣/١٢٦٥، سير الظاهر بيبرس جماعة من التركمان والعربان إلى عكا، «فواصلوا أبوابها، وأسروا جماعة من الفرنج»[3]، ثم استولى على قلعتي تبنين وهونين الصليبيتين عام ٦٦٤/١٢٦٦[4]. وفي سنة ٦٦٥/١٢٦٧، جدد الظاهر بيبرس هجومه على عكا، ولجأ إلى حيلة حربية ليأخذ أهلها على حين غرة، وذلك بأن ألبس بعض جنوده ملابس فرسان الداوية، وألبس البعض الآخر ملابس الأسبتارية، ونجحت الخطة، فلم يشعر الصليبيون بالمسلمين إلّا وهم على أبواب المدينة، عندئذ وضع بيبرس السيف فيهم[5]، عندها سارع صاحب عكا، كغيره من أسياد الفرنج، إلى طلب الصلح، فتردد السلطان بادىء الأمر، لكنه لم يلبث أن قبل العرض، وأبرمت معاهدة للصلح مدتها عشر سنوات، وتقرر: «أن حيفا تكون للفرنج، ولها ثلاث ضياع؛ وبقية بلادها مناصفة؛ وبلاد الكرمل تكون مناصفة؛ وعثليث يكون لها خمس قرى؛ والباقي مناصفة؛ والقرين عشر قرايا؛ والباقي

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض : ١٥٨ - ١٦٢ ؛ أبو الفدا، المختصر ٣ : ٢١٨ ؛ المقريزي، السلوك ١/٢ : ٤٨٨ - ٤٩١ .

(٢) المقريزي، المصدر نفسه : ٤٨٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٥٢٧ .

(٤) عاشور، الظاهر : ٦٣ - ٦٧ ؛ Cahen, La Syrie, p. 714

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض : ٢٦٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم ٧ : ١٤٧ ؛ عاشور، المرجع نفسه : ٦٨ - ٦٩ .

للسلطان، وبلاد صيدا، الوطأة للفرنج، والجبليات للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص»[1].

وفي أيام السلطان قلاوون جددت الهدنة مع عكا لمدة عشر سنين أخرى، وذلك في ٢٢ المحرم سنة ٦٨٠/٣ أيار ١٢٨١، ثم عقدت هدنة جديدة معها في ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٢/٣ تموز ١٢٨٣[2]، تضمنت البنود التالية:

١ ـ تكون مدينة صيدا وقلعتها وكرومها وضواحيها وجميع ما ينسب إليها للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشر ناحية، وما في السواحل من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين ومياه جارية وسكور، للفرنج بها عادة قديمة،تسقي أراضيهم يكون خاصاً لهم.

٢ ـ أن تكون المنطقة الجبلية تابعة للسلطان ولولده بكاملها.

٣ ـ يتعهد الفرنج بألاّ يعمدوا إلى تجديد وترميم الحصون والقلاع والأبراج المهدمة خارج عكا وعثليث وصيدا[3].

ويذكر «رنسيمان» أن تجديد الهدنة مع عكا أعاد إليها بعض الثقة من قبل التجار المسلمين الذين عادوا يمارسون تجارتهم في اطمئنان، وبدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم من جديد إلى الساحل، كما توافد المزارعون المسلمون

---

(١) ابن عبدالظاهر ،الروض : ٣٣٢ ؛ المقريزي ،السلوك ١/٢ : ٥٧١ ؛ العيني عقد ٢/١ : ٢٤٧ ؛ موير ، تاريخ دولة المماليك : ٥٠ .

(٢) ابن عبدالظاهر ، تشريف :٣٤؛ المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٦٨٥ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت : ٢٢ .

(٣) ابن عبدالظاهر ، المصدر نفسه : ٤١ ؛ المقريزي، المصدر نفسه : ٩٨٥ ـ ٩٩٧ .

بمنتجاتهم إلى أسواق عكا[1] ، وبدا أن كل شيء يسير على ما يرام حتى صيف عام ١٢٩٠/٦٨٩، عندما وصل إلى عكا جماعات من الحجاج الإيطاليين، وهم بدون تنظيم واستعداد عسكري، «وانطلق هؤلاء في شوارع عكا، وقتلوا جماعة من التجار المسلمين كانوا قد حضروا إلى عكا في ظل الهدنة التي كان قلاوون قد عقدها مع ملك قبرص الصليبي «هنري لوزينان» إثر سقوط طرابلس[2] ، فغضب السلطان، وطالب صليبيي عكا بتسليم المسؤولين عن تلك المجازر للإقتصاص منهم مع دفع تعويضات . فكان الجواب أنهم ليس لهم سلطان على المذنبين ، فرفض اعتذارهم ، وبرز إلى ظاهر مصر قاصداً عكا لكنه توفي قبل أن يحقق أمنيته، وذلك في ٦ ذي القعدة سنة ١٠/٦٨٩ تشرين الثاني ١٢٩٠[3].

وعندما أعتلى العرش ابنه الأشرف خليل سنة ١٢٩٠/٦٨٩، وضع نصب عينيه تحقيق حلم والده بالإستيلاء على عكا. وفي يوم الخميس ٣ ربيع الآخر سنة ٥/٦٩٠ نيسان ١٢٩١، حاصر السلطان المدينة[4]، ودارت رحى معركة شرسة استمات فيها الافرنج في الدفاع عن مدينتهم بقيادة «هنري لوزينان» نفسه. وفي يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة من السنة /١٧ أيار ١٢٩١، اقتحم المسلمون عكا، ودخلوها عنوة بعد أن هرب من تبقى فيها من القادة الافرنج، وعلى رأسهم ملك قبرص وصاحب جبيل، أما باقي الصليبيين فقد سقطوا ما بين قتيل وجريح وأسير. ونترك الكلام مرة أخرى «لأبي الفدا»، الذي شارك في الحملة على عكا، ليروى لنا كيفية تحريرها[5] :

---

(١) رنسيمان ، الحروب ٣ : ٦٩٢ .

(٢) Jacopo D'Oria, op. cit., IX, P. 411 et n. 3.

(٣) Hassanien Rabie, art. «Ḳalāwūn», op. cit.

(٤) الذهبي ، كتاب دول الإسلام ٢ : ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز ٨ : ٣٠٨ ـ ٣١٠ ؛ ابن كثير، البداية ١٣ : ٣٢١ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٦٣ ـ ٧٦٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ٨ : ٦ ـ ٨ ؛ Cahen, La Syrie, p. 721; prawer, op. cit., II, p. 555.

(٥) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢٤ ـ ٢٥ .

«وفي جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ فتحت عكا، وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا، وأرسل إلى العساكر الشامية، وأمرهم بالحضور، وأن يحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه صحبته إلى حصن الأكراد، وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة، لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة. وكان مسيرنا بالعمل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق، فقاسينا من ذلك، بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد، شدة عظيمة، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها. وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد عليها القتال، ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها، بل كانت مفتحة، وهم يقاتلون فيها. . . .، ثم اشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف. ولما هاجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج، وتحصنوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوق الحصر من كثرته، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة، ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم، فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا، فهدمت إلى الأرض، ودكت دكاً».

وبعد سقوط عكا، أصاب الاضطراب باقي المدن الصليبية، فسقطت تباعاً.

صور:

وتعرضت صور الصليبية للعمليات العسكرية المملوكية منذ سنة ١٢٦٦/٦٦٤، عندما عهد السلطان بيبرس إلى الأمير سيف الدين قلاوون،

القيام بغارات استكشافية على المدن الساحلية، وعاد قلاون يومها بالأسلاب والمغانم الوفيرة[1]، ثم هاجمها بيبرس نفسه يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٦٦٦/ تموز ١٢٦٨، وأخذ منها شيئاً كثيراً[2]، ويقال إن السبب المباشر لقيام الظاهر بيبرس بحملته على صور كان الثأر لمقتل تاجر اغتيل في صور، حيث قدمت إليه أم التاجر ظلامتها، وهو في بلدة خربة اللصوص[3]، على أن بيبرس عقد مع أمير صور سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ ـ ١٢٧١ اتفاقاً قضى بأن يكون لهذا الأمير عشر نواح من بلاد صور، وأن يختار السلطان خمس نواح، وأن تخضع النواحي الباقية لحكم مشترك[4].

وفي يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٨/٦٨٤ تموز ١٢٨٥، عقد السلطان قلاوون مع مرغريت أميرة صور هدنة[5]، بناء لطلبها لمدة عشر سنين، نقتطف منها ما يلي: «... استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين.. وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هنري بن الابرنس بيمند مالكة صور،... على أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده... الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة،... وهي: قانا ومزرعتها، القروية، أصريفيا ومزرعتها، حانا يخن وما بكمالها، المجادل بكاملها، كفردبين بكاملها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية».

«...وتكون للملكة مراريت، مالكة صور، من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها على ما هو مستقر في الهدنة

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض: ٢٥٣؛ الذهبي، العبر٥: ٢٧٥؛ المقريزي، السلوك ١/٢: ٥٤٥؛ ابن تغري بردي النجوم ٧: ١٣٨.

(٢) ابن كثير، البداية ١٣: ٢٥٤؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ١٤٦؛ العيني، عقد ٢/١: ٢٣٧.

(٣) ابن كثير، المصدر نفسه: ٢٥٤؛ العيني، المصدر نفسه: ٢٣٧.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض: ٣٨٩؛ المقريزي، السلوك ١/٢: ٥٩٥.

(٥) ابن عبدالظاهر، تشريف: ١٠٣ ـ ١١٠.

الظاهريـة. . .، وهي: عين أبي عبـد الله، القاسميـة، سدس، قحلب، المرفوف، الجارودية، الحمادية، مرفلة، رأس العين، بـرج الأسبتار، . . . وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها، بما فيها من مزارع، وعدتها بما فيها من المزارع ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي: الطالية، درتيه، الدهرية، الفنونية، العثية، وادي الحجاج، العرتية، البحتية، المالكية، دير عمـران، التعتبية، الكبية، بابولية، الحمية، دير قالون، غرايغال، الزيـادات وحيوية، ربعـين، بني دفنع، مـارنين، عيـا، صديقي، رسكيـانية، رفيلة، عثليث ومزرعتها، الملاحات، السحنـونية، الفـراخية، طـرقان، الـدير، المعليـة، الخميرا، روتيه، بابوح فقعه، البارورية، كفردهال، جوبا ومزرعتها، سرفيه، مجـدل، بيت روح، طرسـا، فسون، التفـاحيـة، أمـد ركنـا، مـارون، طرسخاث، كفـرناي، بني، بـاقتلة، معولـة، طفلسة، أشحـور، الرمـر، الفهـرون، دور دغيا، أبـروخيه، هـرين، الصوافي، حلوسيـة، معروب، بعليث، درقانون، طرديا، بدياس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفيات، بروسيل الجديدة، العباسة، الحنيثة، السفلسة، أشحور الفاه، شادسة، العجيلة، المصـرية. . .، تكـون هذه القـرايا المـذكورة في هـذه الهدنة، . . . مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها، . . . نصفين بـين الجهتين بالسوية».

«. . .وتستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقـررة، ولا ينتقص أحكامها، ولا ينفك نظامها بموت أحد الجهتين ولا بعزل والٍ ولا تولية غيره، . . بل تستمر مدتها، وتوفى عدتها، وهى عشر سنين كـوامل متتاليات. . .».

وأورد «Dussaud» تصحيحات للعديد من أسماء القرى التي شملتها هذه الهدنة، وقد وردت كما يلي[1]:

---

(١) Dussaud, Topographie, P. 33 - 37.

الطاليه قرأها Dussaud «Talibiyé »، درتيه Dussaud «Derina »، الدهرية قرأها «Zaheriyé»؛ الفنونية وردت «Fatouniyé»؛ العثية وردت «Aithiyé»؛ العرتية صححها «Ezziyé» (العزيّة)، باتوليه بدلاً من بابولية، الحنيّة بدلاً من الحميّة؛ دير قانون بدلاً من دير قالون، عين بعال بدلاً من غريغال؛ حنويه بدلاً من حيويه؛ حاريص بدلاً من مارنين؛ صديقين بدلاً من صديقي؛ عثليت قرأها عيتيت؛ طرقان قرأها الطيري؛ الدير وردَت خربة الدير؛ روتية قرأها زبقين؛ يانوح بدلاً من بابوح؛ فقعة عند «Duss». فقعية (عين فقعية)؛ البازورية بدلاً من البارورية؛ كفردهّال قرأها كفردبعال؛ شرقية مجدل قرأها مجدل الشرقية؛ طرسا قرأها «Teirzebné» (طيرزبنا وهي الشهابية اليوم)؛ أمد ركنا تقرأ «Andarkifa» والمقصود ديركيفا؛ طرسخات قرأها «Teir Samhat»؛ بني قرأها نيحا «Niha»؛ باقتله عند «Duss» بافليه؛ معركة بدلاً من معولة؛ طرفلسيه بدلاً من طفلسة؛ الرمر وردت «Alman» الفهرون قرأها «Qarzoun»؛ دوردغيا قرأها «Deir Doughiya»؛ أبريخا بدلاً من أبروخية؛ باريش بدلاً من هرين؛ الصوانة بدلاً من الصوافي؛ بدوث قرأها «Yadouth»؛ بروسيل قرأه «Berd Nabil»؛ العباسية بدلاً من العباسة؛ الحنيثة قرأها «Djineithiyé»؛ السفلية بدلاً السفلسة؛ أشحور ألقاه وردت أشحور القانا (حالياً خربة شحور القانا)؛ شادسة قرأها «Shadiné» العجلية وردت «Fahilé»؛ القروية قرأها «Qaryé»؛ صريفا بدلاً من أصريفيا؛ محرونا بدلاً من حانا يخن (حابا محروما)؛ كفردونين بدلاً من كفردبين؛ المرقوف أو مرفوق بدلاً من المرفوف؛ الجمادية بدلاً من الحمادية؛ الشعيتية بدلاً من التعتبية.

وقد نصت هذه الهدنة على ما يلي:

١ ـ تأكيد الطرفان على ضمان حركة التجارة والانتقال، وتوفير الأمن اللازم لرعاياهما.

٢ ـ أن تكون للسلطان وأولاده خمس من أوفر قرى صور غلالاً، دون أن يشاركهم فيها أحد.

٣ ـ أن تكون لملكة صور عشر ضياع في قرى مرج صور خاصاً لها، حسبما استقر عليه الأمر في الهدنة التي عقدت مع السلطان الظاهر بيبرس.

٤ ـ أن تكون غلات القرى الباقية من صور مناصفة بين السلطان وصاحبة صور.

٥ ـ أن يتم توزيع الغلات بإشراف ممثلين عن الطرفين، مع عدم جواز الانفراد في الاشراف على هذه الغلات.

٦ ـ التزام السلطان بمنع أي اعتداء على بلاد صور.

٧ ـ تتعهد صاحبة صور بعدم بناء قلعة أو ترميم حصن أو تجديد سور في أراضيها.

٨ ـ تتعهد صاحبة صور بعدم مد يد العون لأي من الصليبيين أعداء السلطان.

٩ ـ لا تبطل مفاعيل هذه الهدنة بموت أحد الطرفين، إلّا بعد انقضاء أجلها المحدد.

وظل المماليك يحترمون بنود اتفاقية الهدنة مع صور حتى سنة ٦٩٠/١٢٩١، عندما هاجم السلطان الأشرف خليل مدينة عكا؛ ففي شهر أيار جهز السلطان جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى صور لحفظ الطرق وتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور، فبينما هو كذلك، لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي بصور، فحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور، فأجيبوا إلى ذلك فتسلمها. . .، وعند تسلّمها جهز إليها السلطان من خربها وهدم أسوارها وأبنيتها ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير[1]. ويبدو أن أهل صور قد خارت عزائمهم عندما علموا

(١) أبو الفدا، المختصر ٤ : ٢٥ ؛ ابن كثير، البداية ١٣ : ٣٢١ ؛ المقريزي، السلوك ١/٣ : ٧٦٥ ـ ٧٦٦ ؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨ : ٨ .

بسقوط عكا، فأخلوا مدينتهم ولاذوا بالهرب، وخاصة عندما تخلف نائب الملك «هنري الثاني» عن الدفاع عنها، وفر هارباً إلى قبرص. ويؤكد «الذهبي» صحة هذه الرواية بقوله[1]: «أما أهل مدينة صور، فإن النصارى الذين بها، لما علا في الجو الدخان والنيران في جنبات عكا، هرب أهلها وأخلوا البلد، وكانت حصينة منيعة إلى الغاية، فدخلها الصوابي إلى تلك الناحية، وكتب يبشر السلطان، فأخربت صور وحيفا، وكان بصور خلق من العوام فلم يقتلوا. . .».

أما «الجزري» فإنه يشير إلى خلو صور من السكان عندما سقطت بيد المسلمين، باستثناء أقل من خمسين نسمة من العجزة، ويرد ذلك إلى أن جميع الرجال القادرين على القتال كانوا قد غادروها لنجدة سكان عكا[2]. والراجح أن سبب خلو صور من سكانها إبان سقوطها بيد المسلمين مرده إلى الرعب الذي أوقعه في نفوس أهاليها سماعهم بسقوط عكا.

صيدا:

بدأت المواجهة الأولى بين صيدا الصليبية[3] والمماليك في عهد الظاهر بيبرس، عندما وجه سنة ٦٦٣/١٢٦٥ الأمير إيتامش إلى صيدا، فأغار عليها وعاد بالمغانم الوفيرة[4]، ويذكر «صالح بن يحيى» أن الأمير التنوخي جمال الدين حجى عهد إلى بدر الدين بن رحال بالمرابطة في قبالة فرنج صيدا وبيروت «والمثاغرة لهم»، كما أورد نص كتاب جمال الدين آقوش النجيبي نائب السلطنة في الشام إلى زين الدين صالح بن علي بن بحتر أمير الغرب، في زمن الظاهر بيبرس، وإلى جمال الدين حجى يأمرهما فيه بعدم تفريق جموعهما، وإعادة جمعها وتوجيهها إلى جهة صيدا، والاجتهاد في المساعدة على

---

(١) الذهبي ، كتاب دول ٢ : ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٢) الجزري ، تاريخ الجزري : ٦ .

(٣) عرفت صيدا أيام الصليبيين باسم Sagitta ، وهو ترجمة للإسم العربي صيدا .
Schwartz, art. «Sidon», EI, IV, p. 405 b - 406 a.

(٤) المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٥٤٥ .

حفظ هذا الثغر، كذلك كتب بيبرس إلى الأميرين نفسيهما يأمرهما بالاستمرار في الخدمة والنصح لدولته، ويعدهما بالمكافأة لقاء إطلاعه على الأخبار والمستجدات، وهو بذلك يهدف إلى اتخاذهما عينين له يتجسسان أخبار الفرنج «وأن يكونا مثاغرين على صيدا وبيروت»[1].

وفي سنة ٦٦٧/١٢٦٩، عقدت الهدنة لمدة عشر سنوات بين السلطان بيبرس وبين صاحب عكا، كما أشرنا من قبل، واتفق على أن تكون بلاد صيدا الساحلية للفرنج ومناطقها الجبلية للسلطان[2].

وظلت صيدا بمنأى عن غزوات المماليك المدمرة في السنين الأخيرة من الصراع المملوكي ـ الصليبي، لكنها لم تستطع أن تجنب نفسها مغبة الانزلاق في النزاع الخطير الذي نشب عام ٦٧٧/١٢٧٨ بين صاحب طرابلس بوهيمند السادس وتابعه غي الثاني (سيرغي) صاحب جبيل، إذ أن مقدم طائفة الداوية في صيدا «جيوم دي بوجيه» (Guillaume de Beaujeu) قد ناصر صاحب جبيل، فتعرضت صيدا، أبان هذا النزاع، لهجوم الأسطول الطرابلسي، الذي أنزل رجاله عند قلعة البحر، فوقعوا جميعاً في الأسر، وتعرضت صيدا، بسبب هذه الغارة، لأضرار جسيمة[3].

وعندما سقطت عكا بيد الأشرف خليل، فكر مقدم الداوية فيها نقل مركز المقاومة إلى صيدا، حيث لجأ إليها نفر من الداوية نجوا من مذابح عكا مع قائدهم «ثيبوت جودان» وطائفة من المدنيين، وحمل «ثيبوت» معه كنوز الداوية وأموالهم وذخائرهم، واختير في صيدا مقدماً لفرسان الداوية، لأن المقدم «جيوم دي بوجيه» كان قد سقط صريعاً في الهجوم الأخير الذي شنه المسلمون على عكا. وبينما كان المماليك يدمرون عكا، ويخربون أسوارها وتحصيناتها، ويسوونها بالأرض، كان نائب الشام الأمير سنجر الشجاعي يتوجه على رأس قوة كبيرة إلى صيدا. وفكر مقدم الداوية، في بادىء الأمر،

(١) ابن يحيى، تاريخ بيروت : ٦١ ـ ٦٤ .

(٢) راجع ما ورد في الصفحتين ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) Grousset, Histoire, II, p. 689.

في الدفاع عن صيدا التي كانت جزءاً من أملاك طائفته، وعندماوصلت طلائع القوات المملوكية، خرج الأهالي من المدينة، وتحصنوا مع الداوية في قلعة البحر، ومن هناك ركب «ثيبوت جودان» سفينة حملته وكنوزه إلى قبرص، بعد أن وعد إخوانه والأهالي المحاصرين، بأنه سيعود بإمدادات تعينهم على الصمود.

وطال انتظار المدافعين عن القلعة لهذه الإمدادات دون جدوى، وفي هذا الوقت أخذ الأمير سنجر الشجاعي يقيم جسراً بين البر والقلعة للوصول إليهم، عندئذ يئس المدافعون عن القلعة، فركبوا في ليلة ظلماء سفناً حملتهم إلى قبرص، وعلى الأثر استولى الأمير الشجاعي على قلعة البحر المهجورة نهار السبت ١٥ رجب سنة ١٤/٦٩٠ تموز ١٢٩١، ودمر تحصيناتها[١].

وفي فتح صيدا يقول «المقريزي»[٢]: «وفتحت صور وحيفا وعثليث وبعض صيدا بغير قتال، وفر أهلها خوفاً على أنفسهم، فتسلمها الأمير سنجر الشجاعي في بقية جمادى الأولى، فقدمت البشائر بتسليم مدينة صور في تاسع عشره وبتسليم صيدا في العشرين منه». وفي موضع آخر يقول[٣]: «وكان الأمير سنجر الشجاعي، نائب الشام، قد سار رابع رجب إلى صيدا، وحاصر البرج حتى فتحه في خامس عشره، وعاد إلى دمشق يوم رحيل السلطان منها».

وبعد سقوطها وتدميرها تحولت صيدا مرة أخرى إلى خرائب، ومن المعروف أن سلاطين الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك، كانوا قد اتبعوا سياسة جديدة اتجاه الصليبيين، تقوم على تدمير المدن والقلاع الساحلية التي يستولون عليها، ولا يتمكنون من البقاء فيها، حتى لا يفكر الصليبيون بمعاودة

---

(١) أبو الفدا، المختصر ٤ : ٢٥ ؛ الجزري، تاريخ : ٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم ٨ : ١٠ ؛ رنسيمان، الحروب ٣ : ٧١١؛. Grousset, Histoire ,III, p. 762; Prawer, op. cit., II, p. 557.

(٢) المقريزي، السلوك ٣/١ : ٧٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ٧٦٩؛ ابن الفرات، تاريخ الدول ٨ : ١١٣ - ١٢١.

التحصن فيها، وقد سبقهم في استعمال هذا الأسلوب القائم على تدمير التحصينات للمدن والقلاع بعد احتلالها، عمرو بن العاص عندما خرب سور الإسكندرية بعد أن عاني كثيراً من الصعاب في الاستيلاء عليها سنة ٢٥ هـ[١]، وكان الأشرف خليل إذ أمر بهدم أسوار المدن التي افتتحها فإنما فعل ذلك تحسباً من معاودة الصليبيين، الذين فروا إلى قبرص ورودس، الرجوع إلى هذه المدن والإستيلاء عليها، لذلك فقد أوكل السلطان حراسة الشريط الساحلي، الممتد من طرابلس حتى صيدا، إلى بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عودة الإفرنج إلى هذه الجهة، وتحالفهم مع مسيحيي لبنان «فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين»[٢].

قلعة شقيف ـ أرنون:

وفي إطار الحديث عن تحرير صيدا نرى من الفائدة الإشارة إلى استيلاء المسلمين على قلعة شقيف ـ أرنون ، تلك القلعة التاريخية الصامدة ، التي لما تزل حتى الساعة محط أنظار المعنيين بشؤون التحصينات الدفاعية .

الأصل التاريخي لنشأة هذه القلعة ، الواقعة على نهر الليطاني ، يعود لأيام الفرنج ، وقد عرفت في مدوناتهم باسم (Beaufort) ، أما صاحبها فكان يعرف باسم «ريجنلد» (Reginold) الصيداوي[٣]. وبقيتِ القلعة بيد الصليبيين حتى سقطت بيد المسلمين أيام صلاح الدين في ذي الحجة سنة ١١٨٩/٥٨٤ ، ثم عادت إلى الصليبيين عندما سلمها لهم الملك الصالح الأيوبي سنة ١٢٤٠/٦٣٨[٤]. وفي ١٩ رجب سنة ٦٦٦/ه نيسان ١٢٦٨ هاجم السلطان بيبرس القلعة[٥] ، وكانت يومذاك بيد فرسان الداوية،

---

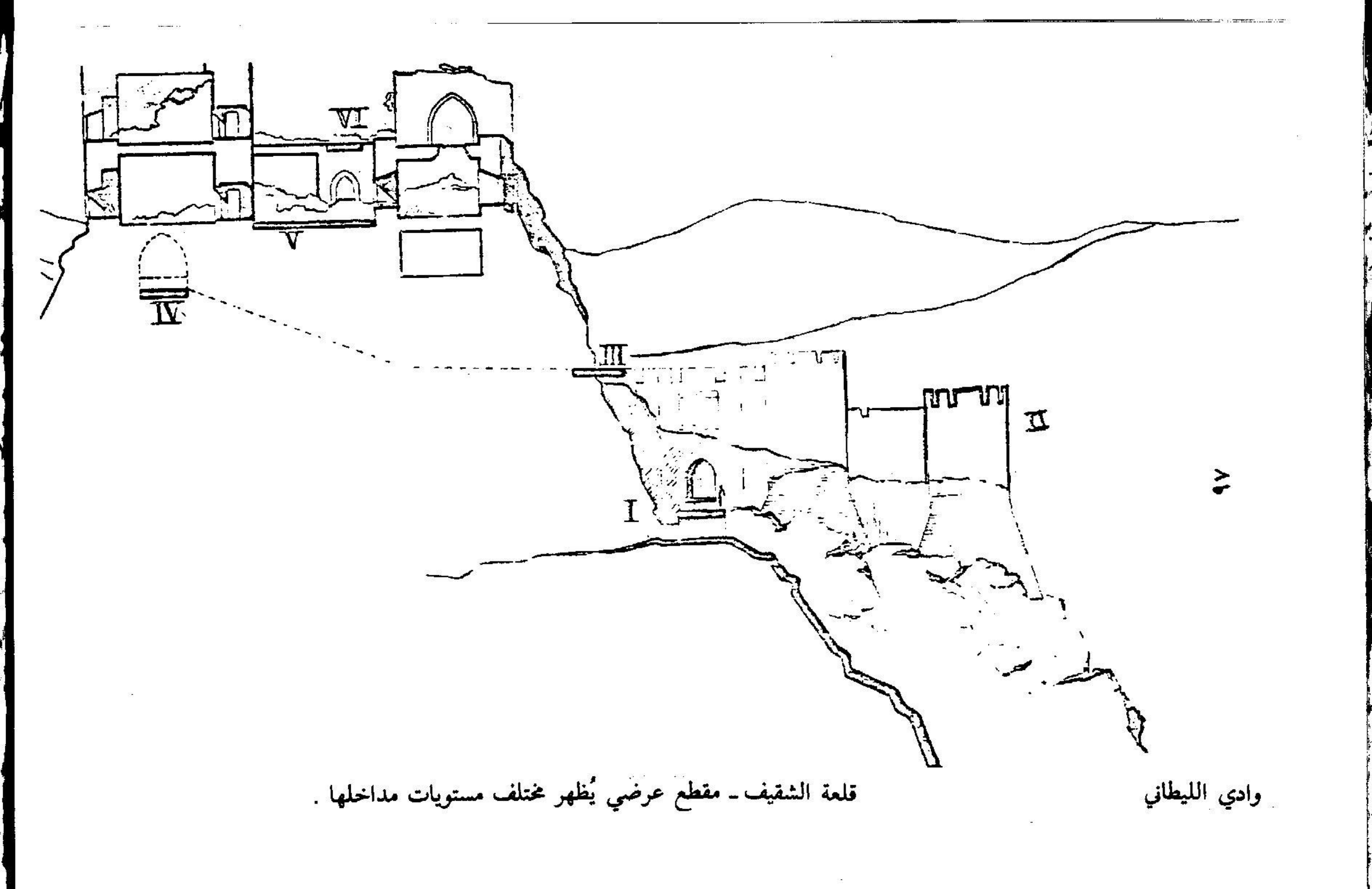
(١) البلاذري، فتوح البلدان: ٢١٩؛ ابن الأثير، الكامل ٣:٤٢.

(٢) يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ٦ : ٣٠٨ .

(٣) انظر الخارطة على الصفحة التالية.

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ٢ : ١٥٥ ؛ ابن عبدالظاهر ، الروض : ٢٩٥ .

(٥) ابن كثير ، البداية ١٣ : ٢٥١ ؛ المقريزي ، السلوك ١/٢ : ٥٦٥ .



قلعة الشقيف ـ مقطع عرضي يُظهر مختلف مستويات مداخلها .

فقاوموا مقاومة عنيدة، لكن الأسوار رميت بستة وعشرين منجنيقاً، فتهدّمت، واستسلمت القلعة يوم الأحد ٢٩ رجب سنة ١٥/٦٦٦ نيسان ١٢٦٨، فوزع السكان على العساكر، وتمكن النساء والأطفال من الانسحاب إلى صور. ثم أمر السلطان بترميم أسوار القلعة، وجعل منها حامية قوية[١]. ويذكر «ابن أيبك الدواداري»[٢] أنه «لما فرغ السلطان من أمر يافا رحل عنها يوم الأربعاء ١٢ رجب، وتوجه طالباً للشقيف، فنزل عليها في ١٨ رجب فوقع له كتاب من الفرنج بعكا إلى النواب بالشقيف يتضمن أن المسلمين قاصدين إليكم، وهم لا يقدروا على أخذ الحصن إن كنتم رجال واحتفظتم به، فجِدُّوا في أمركم. فلما قرأه السلطان انفتح له الباب في الحيلة على أخذ الحصن، فاستدعى من يكتب بالفرنجي، وأمره أن يكتب كتاباً يذكر فيه إشارات بينهم استفادها من الكتاب الذي وقع له، ويحذر الكمندور المقيم في الشقيف من الوزير المقيم عنده ومن جماعة كانت أسماؤهم في الكتاب، وكتب كتاباً آخر إلى الوزير يحذره من الكمندور، ويأمره إن احتاج إلى مال فليأخذه من ملك كان اسمه في ذلك الكتاب، واحتال حتى وصلت الكتب إليهما. فلما وقف كل منهما على كتابه، أخفاه من صاحبه، ووقع الخلف بينهما، وقوى عليهما السلطان الحصار وشدّده، فألجأهم ذلك أن يسيّروا إلى السلطان، وقرروا معه تسليم الحصن على أن لا يقتل من فيه، فتسلم الحصن في ٢٩ رجب، وكان قد ملك الباشورة بالسيف، فاصطنع الكمندور، وكان عدة من بالحصن أربع ماية وثمانون مقاتلاً، فركّبهم الجمال إلى صور، وبعث معهم من يحتفظ بهم، ثم رحل عنها، وسير الاثقال إلى دمشق». كما أن «ابن أبي الفضائل[٣]» قد أشار في «نهجه» إلى أخذ القلعة بالحيلة.

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض: ٢٩٥ ـ ٢٩٨؛ المقريزي، السلوك ١/٢: ٥٦٥ ـ ٥٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم ٧: ١٤٢.

(٢) ابن أيبك الدواداري، كنز ٨: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) ابن أبي الفضائل، النهج: ١٤٦.

بيروت:

«وهي مدينة على ضفة البحر، وعليها سور من حجارة، ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة أشجار صنوبر تتصل بجنوبها إلى جبل لبنان، تكسيرها اثنا عشر ميلاً مثلها، وشرب أهلها من الآبار»(1). فقد سقطت في يد الصليبيين نهار الجمعة ١٠ ذي الحجة سنة ١١٩٥/٥٩٣ (2).

وبعد وصول المماليك إلى السلطة في مصر، وجد أسياد بيروت أنفسهم مضطرين لإجراء معاهدات معهم للحفاظ على استقلالهم اتجاه الافرنج الآخرين؛ ففي عام ١٢٦٩/٦٦٧ عقدت صاحبة بيروت، إيزابيلا إيبلان (Isabella Ibelin)، مع السلطان بيبرس هدنة لمدة عشر سنوات، وقد أورد القلقشندي (3) نصوص هذه الهدنة التي جاء فيها:

«استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية، مدة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس سادس من رمضان سنة سبع وستين وستمائة، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها، من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها:

جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والرواوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والمرج والشويف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية

---

(1) ابن شداد، الأعلاق، قسم ٢ : ١٠١ - ١٠٢ .

(2) المصدر نفسه : ١٠١ - ١٠٢ .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى ١٤ : ٣٩ وما بعدها .

بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفقيه، والوطأ المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان وهي:

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً من جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشانّيها، كذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته براً وبحراً، ليلاً ونهاراً في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه.

«وعلى أن لا يُجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجريه عادة. بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عدم

لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة، وأصبحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلّف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى. . .».

«وعلى أن الملكة فلانة لا تمكّن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين».

«وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والإلتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقصها مرور زمان، ولا يغيّر شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجانبين. . .».

هذه النصوص هي بمجموعها مفيدة لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها، فضلاً عن أنها تدل على ما كان للسلطان بيبرس من نفوذ في تلك البلاد. ويضيف «ابن الفرات» في «تاريخه» أن هذه الملكة كانت كلما عزمت على السفر ومغادرة بيروت، ذهبت إلى السلطان بيبرس بنفسها واستودعته بلادها إلى أن تعود[1]. ثم جددت الهدنة عام ١٢٨٥/٦٨٣ في عهد السلطان قلاون، وبموجبها سمح لأهالي بيروت بالعودة إلى مزاولة نشاطاتهم التجارية[2].

وبقيت بيروت في مأمن من الغارات المملوكية حتى سنة ٦٩٠/ تموز ١٢٩١، فبعد استيلاء المماليك على عكا، سقطت بيروت على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أسوة بجارتيها صيدا وصور، وتكاد تجمع روايات المؤرخين على أن بيروت أخذت بالحيلة دون قتال في ٢٣ رجب سنة

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ٧ : ٣٥ .
(٢) عاشور، الحركة ٢ : ١١٦٩ .

٢٣/٦٩٠ تموز ١٢٩١ [١]؛ فقد ورد عند «ابن يحيى» في فتح بيروت[٢]: أنه «عندما تفرغ سنجر الشجاعي من خراب قلعة صيدا توجه على خيل البريد إلى دمشق، ولحق بالسلطان عند رحيله منها إلى جهة مصر، فأعطاه نيابة الشام ورسم له أن يعود إلى بيروت، وكانت داخلة في الطاعة الشريفة، لأن صاحبها كان قد أرسل إلى السلطان، لما كان محاصراً عكا يطلب منه الأمان فأعطاه أماناً».

«فلما وصل سنجر الشجاعي، تلقاه صاحبها وخيالته أحسن ملتقى، ونزل في القلعة، وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة، ففعلوا، وظنوه شفقة عليهم، فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق، وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب ٦٩٠...».

«ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها، وكانت محكمة البناء، ثم جهز سنجر الشجاعي أهل بيروت إلى دمشق ومنها أنفذهم إلى مصر بأجمعهم، فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما وصلوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال: «أماني باقٍ عليكم»، وخيَّرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم...».

وجاء عند «ابن أبي الفضائل»[٣] أن بيروت فتحت بالمخادعة في رجب سنة ٦٩٠، أما «الذهبي» فقد ذكر «أن أهل بيروت كانوا متمسكين بهدنة، فبدا منهم أنهم خائفون، فنازلهم الشجاعي بهدمها، ثم أخذت في رجب، وأسر أهلها، ودكت قلعتها المنيعة»[٤].

وهكذا تحرر الساحل اللبناني بكامله من ربقة الاحتلال الصليبي، وبه

---

(١) أبو الفدا، المختصر ٤ : ٢٥ ؛ المقريزي ١/٣ : ٧٦٩ .

(٢) ابن يحيى، تاريخ بيروت: ٢٣ ـ ٢٤؛ الجزري، تاريخ : ٧.

(٣) ابن أبي الفضائل ، النهج : ٥٤٨ ـ ٥٤٩ .

(٤) الذهبي ، كتاب دول ٢ : ١٤٥ .

تكاملت فتوحات المماليك لجميع البلاد الساحلية، وتحرر الشام والسواحل من الافرنج، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام [1] ، وبذلك تكون حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين، التي بدأها صلاح الدين باسترجاع القدس، قد انتهت في سنة ١٢٩١/٦٩٠ على يد السلاطين المماليك الأبعة، قطز، بيبرس، قلاوون وابنه الأشرف خليل.

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٤ : ٢٥ .

خاتمة

أحدثت الإنتصارات التي حققها المماليك منعطفاً مصيرياً في بلاد الشرق، باعتبار أنها مثّلت نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقة عامة وفي لبنان خاصة، إذ أفسحت المجال أمام ظهور قوة سياسية مركزية صارمة على أنقاض التشتت الإقطاعي الأيوبي، والفيودالي الصليبي، الذي ساد هذه المنطقة لردح من الزمن؛ وقد تجلت نتائج هذه الإنتصارات على صعد ثلاثة: ديني، سياسي، وديمغرافي.

فعلى الصعيد الديني: أنقذت الإنتصارات المملوكية الإسلام من إخفاق محقق إثر سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية على يد المغول، وتهاوي المدن الإسلامية الهامة تحت وطأة ضربات هولاكو المرعبة، وكان لانتصار المماليك على المغول والصليبيين الدور الأهم في حماية الإسلام من جهة، واستعادة هيبته وانتشاره من جهة أخرى، فعاد للإسلام بريقه ممثلاً بالخلافة العباسية التي أُعيد إحياؤها في القاهرة؛ فاستمر الخليفة، على الرغم من تنازله للحاكم المملوكي عن سلطاته الزمنية، القابض على الشرعية الدينية في

الدولة المملوكية، والجهة الوحيدة القادرة على إضفاء الشرعية على مقام السلطنة.

وعلى الصعيد السياسي: أفلح المماليك في تطهير مملكتهم المصرية ـ الشامية من بقايا الصليبيين وصدوا إلى حين تقدم جحافل المغول المخيفة التي قادها جنكيز خان وحفيده وهولاكو، وبذلك وفّرت هذه الدولة على مصر الويلات التي نزلت ببلاد الشام والعراق، ومهدت سبيل التنعم بثقافة متصلة، وأنظمة سياسية مستمرة لم تتحقق لأي بلد إسلامي خارج الجزيرة العربية، وسيطروا نحو مئتين وسبعين سنة على بقعة كانت من أكثر البقاع فتنة واضطراباً؛ فأقاموا فيها سلطة مركزية مرهوبة الجانب اعتبرها المؤرخون إحياء للمركزية الصارمة التي كانت قائمة أيام الدولة العباسية في أوج توسعها العسكري، وبالرغم من أن هذه المركزية قد عزلت المنطقة عزلة تامة عن مجاري التطور الحضاري والتجاري التي كانت تعيشها أوروبا آنذاك، فإن هذه المركزية بالذات كانت سداً منيعاً أمام الأطماع العسكرية الأوروبية طوال قرن من الزمن.

واعتبر المماليك لبنان وفلسطين جزءاً لا يتجزأ من دولتهم وهذا ما يفسر سيطرتهم وبطشهم بكل من ناوأهم أو تمرد عليهم. على أن ما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة المماليك في لبنان قد اقتصرت على المدن الساحلية دون الجبال، وليس سبب ذلك «مناعة الجبال اللبنانية» أو «شدة بأس مقاتليها»، بل لأن هذه المنطقة الجبلية الوعرة لم تكن مثيرة لأطماعهم، ولانشغالهم بحماية السواحل من الغزوات المتقطعة التي كان يقوم بها الصليبيون بين الحين والآخر.

أما على الصعيد الديمغرافي: فقد رافق الغزو الصليبي للبنان تدفق النصارى نحو السواحل واحتكارهم مهمة الوساطة التجارية بين الصليبيين وبين الداخل اللبناني ـ السوري، فركزوا أقدامهم في البترون وجبيل وطرابلس وبيروت وصيدا وصور. وتحت وطأة الحاجة الملحة لحماية المدن الساحلية من هجمات الصليبيين، كان على المماليك أن يستعينوا بجماعات يُؤمن جانبها،

فأوكلوا أمر هذه المهمة إلى المقاطعجيين اللبنانيين الموالين لهم (الأمراء التنوخيون) وإلى بعض عشائر التركمان والمسلمين «ليكونوا فاصلاً بين الافرنج والنصارى الوطنيين»، الأمر الذي أدى إلى كثافة الوجود المسلم في السواحل، وانحسار النصارى بشكل عام، والموارنة بشكل خاص، عن السواحل واعتصامهم في المناطق الجبلية إلى جانب العديد من الصليبيين الذين لم تتوفر لهم سبل الهرب إلى الخارج، فاحتموا بالنصارى في الجبال الشمالية واعتنقوا المارونية بعد استيطانها للجبل، وفي ذلك يقول «فيليب حتي»[1]:

«. . .ليس غريباً، اليوم، مشاهدة عدد من الناس من ذوي العيون الزرق، والشعر الأشقر في مدن مثل إهدن في شمالي لبنان وبيت لحم والعريش، وهناك أسر أغلبها نصرانية مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبي قد حفظت تقاليد تحدرها من أسلاف إفرنج، ويقال أن أسماء بعض الأسر الأخرى كصوايا مأخوذة من سافوا (Savoie) والدويهي من ده دوي (De Douai). وساهمت هذه التحركات السكانية، وما رافقها من دخول عناصر بشرية جديدة في بنية السكان، في رسم المعالم الأساسية للتوزيع السكاني الطوائفي في لبنان الذي لم يزل تأثيره ظاهراً للعيان حتى يومنا هذا.

يبقى أن نشير إلى أن العمليات العسكرية الكبرى التي رافقت الصراع المملوكي - الصليبي، أدت إلى تخريب العديد من مدن الساحل اللبناني وتدميرها، فتحولت تلك المدن إلى قرى بسيطة دون نشاط تجاري هام، فحلّت الطرق البرية محل الطرق البحرية، عبر حلب وبغداد ودمشق والقاهرة، دون مرورها بالساحل، مما دفع قسماً كبيراً من السكان لمغادرة الساحل نحو الداخل. ولكن هذه الحروب التي فرضها المستعمر الأوروبي على المنطقة العربية، والتي كان يهدف من ورائها تحقيق مطامعه الإقتصادية، كانت تتطلب منه إحداث شرخ كبير في البنية المجتمعة للسكان، فنجح في خلق التنافر بين المسلمين والمسيحيين، وإثارة الحزازات الدينية التي لم تنطفء جذوتها بعد.

---

(١) حتي ، عرب مطول ٢ : ٧٩٢ .



الفهارس

- فهرس الأعلام.
- فهرس الجماعات والقبائل والأمم.
- فهرس الأماكن.
- قائمة بأسماء سلاطين المماليك الذين واكبوا تطور الأحداث التي وردت في البحث.
- المصادر والمراجع.
- محتويات الكتاب.

فهرس الأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس الجماعات والقبائل والأمم

فهرس الأماكن

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

قائمة بأسماء سلاطين المماليك الذين واكبوا تطور الأحداث التي وردت في البحث

١ - المظفر قطز (٦٥٧ - ٦٥٨/ ١٢٥٩ - ١٢٦٠).

٢ - الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧).

٣ - المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩/ ١٢٧٩ - ١٢٩٠).

٤ - الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣/ ١٢٩٠ - ١٢٩٤).

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

أ ـ المصادر العربية :

ابن أبي الفضائل، المفضل (ت ١٣٥٨/٧٥٩):
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه. باريس. ١٩١٩ ـ ١٩٢٩.

ابن الأثير، عز الدين علي (ت ١٢٣٢/٦٣٠):
الكامل في التاريخ، م٩. بيروت. ١٩٦٧.

ابن اياس، أبو البركات محمد (ت ١٥٢٤/٩٣٠):
بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ق ١. القاهرة. ١٩٦١/١٣١١.

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت ١٣٣٦/٧٣٦):
كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨، تحقيق أ. هارمان. القاهرة. ١٣٩١/ ١٩٧١.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت ١٤٧٠/٨٧٤):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ٧، ٨. القاهرة. ١٩٣٢، ١٩٣٨، ١٩٣٩.

ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت ١٣٧٧/٧٧٩):
درّة الأسلاك في دولة الأتراك، ج ١، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، Arabe 4680.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ١٤٠٥/٨٠٨):
كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر، م٣. بيروت. ١٩٦٦.

ابن شاكر الكتبي، صلاح الدين محمد (ت ١٣٦٣/٧٦٤):
فوات الوفيات، م٢، تحقيق إحسان عباس. بيروت. ١٩٧٤.

ابن شداد، عز الدين محمد (ت ١٢٨٥/٦٨٤):
١ ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ق٢، تحقيق سامي الدهان. دمشق. ١٩٥٦.
٢ ـ تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط. فيسبادن. ١٩٨٣.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله (ت ١٢٩٢/٦٩٢):
١ ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل. القاهرة. ١٩٦١.
٢ ـ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر. الرياض. ١٩٧٦/١٣٩٦.

ابن العبري، غريغوريوس الملطي (١٢٨٦/٦٨٥):
تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطوان الصالحاني اليسوعي. بيروت. ١٨٩٠.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد (ت ١٤٠٤/٨٠٧):
تاريخ الدول والملوك، م ٧ ـ ٨، تحقيق قسطنطين زريق. بيروت. ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢.

ابن القلاعي، جبرائيل اللحفدي (ت ١٥١٦/٩٢٢)
حروب المقدمين (١٠٧٥ ـ ١٤٥٠)، نشر بولس قرألي، المجلة البطريركية، السنة العاشرة، حزيران ـ تموز ١٩٣٥. بيت شباب. ١٩٣٧.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت ١١٦٠/٥٥٥):
ذيل تاريخ دمشق. بيروت. ١٩٠٨.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت ١٣٧٣/٧٧٤):
كتاب البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٣، مصر (بدون تاريخ).

ابن واصل، جمال الدين محمد (ت ١٢٩٨/٦٩٧):
مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٥، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور. القاهرة. ١٩٧٧.

ابن يحيى، صالح (ت ١٤٤٦/٨٥٠):
تاريخ بيروت، تحقيق كمال الصليبي وفرنسيس هورس اليسوعي. بيروت ١٩٦٩.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن (ت ٦٦٥/ ١٢٦٧):
١ ـ الذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية. بيروت. ١٩٧٤.
٢ ـ الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ق ٢. القاهرة. ١٩٦٢.

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢/ ١٣٣٢):
١ ـ تقويم البلدان. باريس. ١٨٤٠.
٢ ـ المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ـ ٤. بيروت (بدون تاريخ).

الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت ١٢٠١/٥٩٧):
الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح. القاهرة. ١٩٦٥.

الحميري، أبو عبد الله محمد (ت ٩٠٠/ ١٤٩٤):
كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس. بيروت. ١٩٧٥.

الذهبي، شمس الدين محمد (ت ١٣٤٨/٧٤٨):
١ ـ العبر في خبر من غبر، ج ٥. الكويت. ١٩٦٦.
٢ ـ كتاب دول الإسلام، ج ٢. حيدر أباد. ١٣٦٤.

العيني، بدر الدين محمود (ت ١٤٥١/٨٥٥):
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.
Extrait dans Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, II[a], 183-254. Paris. MDCCCL XXXVII.

القزويني، زكريا بن محمد (ت ١٢٨٣/٦٨٢):
آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت. ١٩٦٠.

القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ١٤١٨/٨٢١):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج ١٤، القاهرة. ١٩١٩.

المقريزي، تقي الدين أحمد (ت ١٤٤٢/٨٤٥):
١ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، الطبعة الثانية، تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة. ١٩٥٧ ـ ١٩٧٠.
٢ ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط)، ج ١ ـ ٢. القاهرة. ١٢٧٠.

النويري، شهاب الدين أحمد (ت ١٣٣٢/٧٣٢):
نهاية الأرب في فنون الأدب، صورة شمسية بدار الكتب المصرية،رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ياقوت الرومي، شهاب الدين (ت ١٢٢٨/٦٢٦):
معجم البلدان، ج ١ ـ ٥. بيروت. ١٩٧٩.

ب ـ المصادر العربية المترجمة:

Al - Djazari, Shams ed-Din, La Chronique de Damas d'al-Djazari (Anneés 689 - 698 H), Par J. Sauvaget. Paris. 1949.

Moufaddal Ibn Abil Fadail, Histoire des Sultans Mamlūks, dans Patrologia Orientalis XII, XIV, XX, texte arabe traduit en français, publié Par E. Blochet. Paris. 1919 - 1929.

Recueil des Historiens des Croisades, Publié par les soins de l'Academie des Inscriptions et Belles - Lettres. Historiens Orientaux, IIª. Extrait du Collier de Perles:

Al - ʿAyni, texte arabe avec traduction annotée. Paris. MCCCLXXXVII.

ج - المصادر الأوروبية:

Hayton, La Flor des Estoires d'Orient, Histoire des Croisades, Documents Arméniens, II. Paris. 1896.

Jacopo D'Oria, Annali du Jacopo D'Oria, Parties Iª - II, Vol. VIII-IX.

ثانياً: المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

حسن، علي إبراهيم، دراسات في تاريخ المماليك البحرية. القاهرة. ١٩٦٧.

الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، ج ٦. بيروت. ١٩٠٢.

الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان. بيروت. ١٩٥٤.

عاشور، سعيد:

١ ـ الحركة الصليبية، ج ٢. القاهرة. ١٩٦٣.

٢ ـ العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة. ١٩٦٥.

كرد علي، محمد، خطط الشام، م ١، ج ٢. بيروت. ١٩٦٩.

الكناني، مصطفى:

١ ـ العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى. الاسكندرية. ١٩٨١.

٢ ـ العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي. الاسكندرية. ١٩٨١.

لباد، ميشيل، الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية بمصياف. بيروت. ١٩٥٢.

نسيم، جوزيف: العدوان الصليبي على مصر ـ هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ـ الإسكندرية، ١٩٦٩.

ب ـ المراجع الأوروبية المترجمة إلى العربية:

جوانفيل، جان دو، القديس يوسف، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشي. القاهرة. ١٩٦٨.

حتي، فيليب، تاريخ العرب المطول، ج ٢، ترجمة أدورد جرجي وجبرائيل جبور، الطبعة الرابعة. بيروت. ١٩٦٥.

رنسيمان، ستيفن، الحروب الصليبية، م ٢ ـ ٣، ترجمة الباز العريني. بيروت. ١٩٦٨.

موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن. مصر. ١٩٢٤.

ج ـ المراجع الأوروبية:

Cahen, Cl:

1 — Orient et Occident aux temps des Croisades. Paris. 1938.

2 — La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principaute d'Antioche. Paris. 1942.

Gaudefroy - Demombynes, M., La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes. Paris. 1923.

Deschamps, P., Lés Châteaux des Croisés en Terre Sainte I, Le Crac des Chevaliers . Paris. 1934.

D'Ohsson, C.M., Histoire des Mongols dépuis Tchinguiz kan Jusqu'à Timour Bey, III. La Haye et Amsterdam. 1835.

Dussaud, R., Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale. Paris. 1927.

Grousset, R.:

1 — L'Empire des Steppes. Paris. 1969.

2 — L'Epopée des Croisades. Paris. 1936.

3 — Histoire des Croisades, Vol. I - III. Paris. 1934-1936.

Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age, Vol. I - II. Lipzig. 1885-1886.

Mamfroni, C., Storia della Marina Italiana della Invasione Barbariche al trattato di Ninfeo (400 - 1261), Vol. I. Livorno. 1899.

Lane - Poole, St., A History of Egypt the Middle Ages. London. 1936.

Prawer, J., Histoire du Royaume Latin de Jérusalem, III, Paris, 1970 (P. 419 - 557).

Setton, k., A History of the Crusades, III. London. 1970.

Stevenson, W. B., The Crusades in the East. Cambridge. 1968.

ثالثاً : دائرة المعارف الإسلامية. (Encyclopédie de l'Islam).

أ ـ الطبعة القديمة: (EI)

Schwartz, P., art. «Sidon», IV, P. 405b - 406a.

ب ـ الطبعة الجديدة (الفرنسية) : (EI²)

Ayalon, D., art. «Ḥiṣār», IV, P. 485b - 492b.

Baer, art. «Īsmā'Īliyya», IV, P. 215b - 216a.

Elisséeff, N.:

1 - ar. «Batrūn», I, P. 1135b.

2 - art. «Ḥiṣn al - Akrād», III, P. 520b - 523a.

3 - art. «Kal'at al Shakīf», IV, P. 503b - 505a.

Rabie, H., art. «Ḳalāwūn», III, P. 505a - 507a.

Lewis, B.:

1 - art. «'Ayn Djālūt», I, P. 810a - 811a.

2 - art. «Hashishiyya», III, P. 275b - 276b.

محتويات الكتاب

الفصل الثالث
الفتوحات العظمى

الفهارس

تاريخ لبنان الوسيط

احتل لبنان حيزاً بارزاً في صراع الغرب والشرق منذ حروب الاسكندر المقدوني وحتى عصرنا الراهن كونه عقدة المواصلات في هذه المنطقة من العالم وجناح الشرق على ساحل المتوسط.

وقد استعرت حروب طويلة حول هذه المنطقة كان لبنان دائماً نقطة الارتكاز فيها استعماراً وتحريراً ولقد ارتدت هذه الهجمات أردية مختلفة الألوان كان منها رداء الصليب الذي ارتدته الحملات الصليبية في الحقبة التي يتناولها كتابنا هذا.

إن تاريخ أي وطن نتاج طبيعي بالضرورة لما مرّ به عبر تاريخه الطويل من محن وصراعات وانقسامات ولذا كان كتاب تاريخ لبنان الوسيط اطلالة علمية مستنيرة ألقت الضوء على فترة هامة من فترات هذا الصراع المخاض الذي ولد منه لبنان بشكله وحدوده وكيانه الحاضر.

لقد اجتاز كتاب تاريخ لبنان الوسيط، قشور الصراع إلى لبابه وتجاوز عمومياته إلى تفصيلاته مرتكزاً على أسس بحث علمي رصين مستنداً إلى مراجع مختلفة المشارب والاتجاهات.

كتاب تاريخ لبنان الوسيط خلاصة حية صريحة وعلمية لتاريخ لبنان في مرحلة رئيسة من مراحل الصراع الذي لم ينته بعد.